الغزوة الواحدة بعد الألف

قصة بقلم ميلحانه فياض

- ١ -

نزل من القطار منفردا . تلفت حوله عسى ان يرى انسانا آخر يرافقه الطريق . ارتفع صفير قطار الدلتا وافلع شمالا مواصلا رحلته البطيئة . غادر محطته الرابعة على شريط الشاطىء . محطة منعزلة تقع بين قريتين متباعدتين عن ضفتي الترعة . تتواجد كما هي منذ سنوات بعيدة ، قبل أن يولد . يحدها غربا مصرف ضيق لمخلفات مياه الارض حين تزرع أرزا ، او حين تجدد تربتها لزرعة مقبلة . ويحدها شرقا زرعه البوهية . تتألف المحطة من كشك خشبي كبير أصفر، بداخله مكتب وحيد ، للبريد ، وللبرق ولتذاكر السفر ، في النهار يكون الضوء بداخله معتما . لا يجد من ظلمته سوى الضوء الوالج من الباب المفتوح دائما ، ومن نافذة التذاكر حين تفتح . وفي الليل يصبح الضوء اكثر كآبة وظلمة ، حول المصباح الغازي الضعيف ، على نافذة التذاكر لافة من حديد ، مطلية بزيت أبيض تتسقق لتعادمه ، كتب فوقها بخط فارسي ، تآكلت حروفه : تذاكر . من هذه النافذة يقطع المسافرون تذاكرهم للسفر شمالا او جنوبا . الا حين يكون المسافر من اهل المكانة . عندئذ فقط يدخل الى عم عزيز من باب الكشك . وغالبا ما يكون مشغولا بثلاثة اعمال في وقت واحد . يختم الرسائل ويلفها بخيط ، ويختمها بالشمع ، ويدخل التذاكر في ذراع الآلة الحديدية ، ويدفعها بسرعة لتنضغط عليها ارقام تاريخ اليوم ورقم القطار ، ويتكئ بأصابعه فوق آلة البرق مرسلا ، وينصت لتكتكة تاليه تتحرك بها أصابع الآلة وحدها . الى جوار الكشك الخشبي سقيفة مظلة ، تمتد من ذات سقف الكشك الخشبي ، تحملها اعمدة خشبية مربعة بنية اللون. فيما مضى كانت تقبع تحتها مقاعد خضراء ، مزدوجة شرقا وغربا، لكن المطر والرياح أتلفاها ، وأبلى الزمن شرائحها الخشبية ، فاستباحها الاولاد الاشقياء ، وامتدت اليها الايدي العابثة القلقة ، فاختفت المقاعد بقوائمها الحديدية ، وما بقي من عوارضها .

ليس للمحطة من حارس او معاون . لا احد سوى عم عزيز . وكانت الشمس ترتفع فوق سماء قريته البعيدة ، وتجنح للمغيب ، وظلال اشجار الصفصاف والسقيفة ، والاعمدة ، والكشك ، تستلقي الى مسافة كبيرة ، مغطية مياه الترعة حتى الشاطىء الآخر . حاول ان يستدعي ذكريات من صباه ، مع هذه المحطة ، وتلك الترعة ، وهذا المصرف ، لكن الاشياء كانت بعيدة جدا الآن ، ونائية . المكان مألوف لديه وحبيب ، لكنه ، في الوقت نفسه ، صار صغيرا ، وضيقا، وجافا، حال لونه من الاخضر الزاهي ، الى البني الكابي . كل الاشياء الاولى التي كان يحس بها كبيرة جدا من قبل ، وحية ، وغنية ، ومليئة بالضجة ، حتى في صمتها ، صارت الآن صغيرة صغيرة ، تثير فيه الشعور بأنه قد نما طولا وعمرا ، وانطوى اكثر على نفسه ، واصبح اكثر شعورا بذاته . كانت كل ذرات جسده تستقبل هذا العالم . الآن لا يراها سوى بحواسه . انقبض قلبه لذلك الخاطر . لقد شاخ ، وعمره عند العشرين . فكر أن المدينة اصبحت وحدها الساحة التي تتسع له. لا يحس فيها بمثل هذه المشاعر : النهر العريض الشوارع الفسيحة ، العمائر العالية ، المتاجر الكبيرة ، اجسام الناس الكرشاء المترهلة عيونهم التي تتدلى من تحتها الجيوب . ستبدو القرية لعينه ، كما تبدو الآن هذه المحطة ، صغيرة صغيرة ، ونافهة تافهة . وهرب من خواطره والجأ باب الكشك الخشبي ، ليرى عم عزيز . كما هو ، كما كان ابدا ، الا من شعر ابيض اكرد ، يحتل نصف رأسه . عيناه المستديرتان صارتا اكثر جفافا ورزانة . وجهه صار أكثر سمرة وغضونا. ما يزال نحيفا كما كان ، كما تخيله في صداره وبنطاله . يتكئ مرسلا ، وينصت للتكتكة مستقبلا :

- عم عزيز !

- ياه . غيبة طويلة . من ينسى اهله وبلده . سأنتظرك في البيت . بعد آخر قطار في العاشرة أعود الى الدار . وحشتنا يا ابني. كيف حال الوالدة والاسرة ؟.

وغادر الكشك ، جرب ان يسير على شريط القطار ، كما كان في الماضي . لكن قدميه الآن كانتا اعرض من الشريط ، وفي داخل حذاء ناشف النعلين . لذلك كان يختل توازنه دائما . لم يعد الامر كما كان من قبل . شبك يديه خلف ظهره ، وفتح عينيه متمليا ما حوله . وتذكر ان بجيبه الان جنيها ونصفا . سيكفيه هذا المبلغ اسبوعا ، يقيمه هنا مع زوجة جده الارملة . الغزوة التي جاء من اجلها لن تستغرق منه سوى ثلاثة ايام على الاكثر . ابتسم للخاطر الذي انبثق في رأسه : الشاطر حسن يغزو مسقط رأسه وحده . وفكر ان الاسكندر الاكبر ، ذا القرنين اللذين لا يعرف ما هما بعد ، قد غزا بلاد فارس وعمره تسعة عشر عاما. لم يكن جيشه سوى دمى يحركها . وكان هو الذي يحارب وحده .

*

انعطف غربا ، عابرا قنطرة المصرف . على يساره كان صهريج المياه يقف عاليا ، بجواره غرفة لم يوضع فيها موتور بعد لرفع المياه ، ولا ماكينة التكرير ، ولا حوض للتنقية . بجواره ما تزال ساقية الحاج عمر الخشبية قائمة . من جانب السافية تنحدر قناة ، ركدت فيها المياه القليلة ، تحفها الاعشاب ، وتعلوها اوراق عش الغراب . وعلى المدى ،

في اتجاه القرية ، تمتد مساحات المزارع ، يقطعها الطريق العريض المترب ، بين قناتين . اعواد الاذرة ما تزال خضراء لم تنبت لها شواشي ، ولم تحتضن اورافها الكيزان الخضراء . تحت حقول الاذرة كانت احواض البرسيم ، اعواده ما تزال صغيرة غضة . اعواد القطن انتشرت لوزانها الخضراء ، وبعضها تفتح عن قطن أبيض . روائح الخصب والنماء والتراب تزكم انفه ، والشمس تغرب في الافق ، تسقط بلا شفق ، والجو يبدو في احساسه مثقلا بالحرارة ، والهواء الراكد ، والبخر غير المنظور للمياه والمزارع . يحس معها جميعا بلحظة المخاض . المخاض ؟ أي مخاض ؟ انني قادم اليك يا قريتي ، يا مسقط رأسي ، لاوقد شمعة في ظلامك . لاطلق شرارة الحركة بين ناسك . يا من تنامين ، على اطباق المش ورؤوس البصل ، تحلمين بالسمن والعسل ، تتمددين كل عصر على المصاطب ، ترقدين مع العشاء في القاعات المختنقة بالهواء الفاسد . غاب عنك الشاطر حسن سنين طويلة ، وها هو يعود اليك وحيدا ، ليأخذ بيدك . تراها تمد يدها اليك لتنهض ، ام تلعنك ، وتبصق في وجهك ! ترى فيك ولدا عافا عابثا ، اضلته المدينة، واغوته غوانيها ، ولم يعد واحدا منها لكن مهلا يا أيتها القرية النائمة ، على رسلك ، وحنانيك . لغتي لم تزل هي لغتك ، مهما باعدت بيني وبينك الايام والمسافات . واعرف ما يؤثر حقا في قلوب أهلك . لك حفظت آيات من القرآن . ومن وافعك سأبدأ ، ومع فقرائك سأكون ، بعيدا عن أغنيائك ، وعمدتك ومشايخك . مع شبابك ستجدينني . لست أريد لك سوى الخير ، ناديا بسيطا لابنائك ، يطلق بعض ارادتك الهامدة ، ارادتك لتكوني . لتقولي : لا ، يوما ، في وجوه الاقوياء .

له جاء عطية في بيت أبيه بالمدينة . تتقد عيناه ذكاء ، ومكرا ، وحيوية . أسود كالحبش . أكرد الشعر ، قصير ونحيف .

ـ هيه . وكيف حال الناس ؟

ـ كما كانوا !

ـ بعد عشر سنوات ؟

ـ وبعد عشرين سنة !

ـ لا يمكن . اسمع . كم متعلما الان في البلدة ؟

ـ اكثر من ثلاثمائة . في الثانوي وحده !

ـ والجامعيون ؟

ـ يزيدون على الخمسين !

ـ على ايامي ، قبل عشر سنوات . كنا سبعة نحفظ القرآن .وكان كل المتعلمين لا يزيدون على العشرين . الدنيا تتطور . كيف تظل اذن القرية في حالها ؟

ـ أنتم المسئولون !

ـ من ؟ انا ؟

ـ من يتعلم . يذهب الى البنادر . ولا يعود الا زائرا ، او باحثا عن مال ، من ارض يؤجرها ، او ميراث لزوجته . كيف تتطور بلدتنا اذن . اغنياؤها يزدادون غنى . العمدة يتزايد سلطانه وسطوته . صار له نائب عمدة . صار له مجلس من مشايخ البلد . من كل عائلة شيخ ، ليحكم قبضته وسيطرته ، ليعزل المتعلمين : الطلاب ، والموظفين الصغار، عن الناس . طيلة هذا الصيف ، ونحن نجلس على المصاطب ، وحدنا ، منبوذين من اهل القرية . لماذا ؟ لاننا افندية ، نفرق شعورنا ، نسرحها بالصابون والفازلين . يطردوننا لانهم يزعمون اننا نعاكس النساء ، ونغوي البنات .

ـ ورأيك ؟

ـ نادي !

ـ ماذا ؟

ـ نادي للقرية !

فكر حسن لحظة . ثم قال :

ـ فكرة . فكرة ممتازة . لم لا تنفذونها ؟

ـ من ؟

ـ أنتم . الطلاب . المتعلمون . الاهالي الفقراء الذين لا أرض لهم، ولا سلطان .

ضحك عطية ، وقال :

ـ أتذكر عم مرجان ؟

ـ نعم . ماله ؟

ـ كان عبد العائلة الديري .

ـ أعرف . وأصبح حرا .

ـ لكنه رفض هذه الحرية .

ـ كان صاحبي . لم يقل لي ذلك .

ـ لم يقله لاحد . لكنه ظل جالسا يخدم أسياده من عائلة الديري. ظل عبدا حتى مات . يعمل مقابل الفضلات لطعامه ، بلا أجر ، بلا زوجة . يزرع . يصنع مفاطف من الخوص واقفاصا من الجريد . يغزل خيوط القطن والصوف . بالابرة طواقي لرؤوس العائلة ، وتكك لسراويلهم الداخلية . يربي الاولاد ، ينزح آبار البراز في بيوتهم ، ويقطع السباخ من حظائرهم حتى مات شيخا فانيا ..

ـ ماذا تقصد ؟

ـ لماذا لم يصر حرا ؟ أين يذهب ؟ ماذا يملك ؟

ـ لم تكن له عائلة . كان عبدا غريبا . اوضع مختلف .

ـ قليلا . في الشكل . انتم متعلمون . الاهالي لهم عائلات .

ـ لكنهم فقراء . جهلة . واعتادوا الطاعة . ألفوا الاستعباد مثل عم مرجان . يقفون ضدنا ، نحن المتعلمين ، اذا لزم الامر . اتعرف البنداري ؟

ـ اسمع عنه . في حدود ما اعرف ابوه عسكري بوليس في النقطة . بأربع شرائط . طالب بكلية التجارة .

ـ لم يستطع ابوه ان يحميه . من العمدة ، والمشايخ . لم يقف معه احد .

ـ ماذا حدث ؟ انك تثيرني .

ـ تحمس لفكرة النادي . تبناها ، جمعنا . تحدث معنا . قمنا بمظاهرة ، مطالبين بالنادي .

ـ مظاهرة ؟

ـ نعم .

ـ مرة واحدة . يا لكم من اغبياء . وماذا حدث ؟

ـ وضعت في جيبه منشورات ضد الملك وهو لا يدري . ثم قبض عليه ، وسجن بالنقطة أياما . دسها اعوان العمدة . اعدتها النقطة بنفسها ، بعد ان فشل ابوه في ترويضه . ثم .. وهذا هو المضحك ، توسط له العمدة ، بعد ان بكى ابوه ، جندي البوليس ، بكى وتوسل، وكتب تعهدا على نفسه ، واعدا ألا يبقى ابنه في البلدة . أرسله الى أقارب بعيدين منذ شهرين . نفي من البلدة ، وحرم عليه العودة اليها.

ـ والان . ماذا تريد ؟

ـ ان نفتح النادي !

ـ كيف ؟

ـ لكم في البلدة بيت ، نريد منه حجرتين للنادي . امامه جرن واسع كملعب . وسنستغل الحجرتين لالعاب التسلية ، والمكتبة .

ـ لا مانع عندي . اعتقد ان ابي سيوافق . فالبيت مهجور ، ولا تقيم فيه سوى زوجة جدي . ولها باب آخر ، يؤدي لحجرات البيت الاخرى . لكن ، لم يعارض العمدة ومشايخ البلد ، والاعيان ؟

ـ لا نعرف . لم يقولوا لنا شيئا .

ـ هل تحدثتم معهم ؟

ـ لا .

ـ تحدثتم اذن مع الناس .

ـ لا . تصرفنا فقط .

ـ تصرفتم بصورة مضحكة . هذه خبرة على أي حال ، حتى

لا نفع فيها من جديد لكن . لماذا جئت الـــي ؟ البيت أنا مستعد ان اعطيك مفتاحه .

ـ هناك شيء آخر . خالك نائب العمدة . وانت من عائلة قوية . تستطيع انت ان تقيم لنا هذا النادي . أبوك تحدى في زمانه ، ايـــام شبابه العمدة السابق ، والد العمدة الحالي .

ـ لكنه قبض عليه ايضا ، وضع الحديد في يديه .

ـ ثم ماذا حدث ؟ لقد انتصر أبوك ، لان عائلته ثارت من أجله .

ـ نريدني ان اكرر ما حدث .

ـ لم لا . من اجل صالح بلدك .

ـ سأفكر في الامر . لا مانع لديّ بصفـة مبدئية . فلنجرب علىاي حال . اعتقد ان العمدة والمشايخ والاعيـــان يجب ان يقفوا عنـــد حدودهم . القرية للناس . والحياة لهم . لماذا يتحكم الافويـاء فيهم . سأفكر . المسألة تحتاج الى تدبير اولا .

ـ سننتظر مجيئك . هذا الصيف .

كان حسن يقترب من بيت الحاج عمر ، العصامي ، قريب العمدة، الذي صارت ارضه ثلاثيـن فدانا ، بعد ان كانت خمسة افدنـة . عمة حسن زوجة لابن الحاج عمر . عزف ان يراه احد منهم الليلة . بينـــه وبينهم مودة مفقودة ، يعيشون في عزلتهم ابدا ، مكتفين بانفسهم عـن الناس جميعا . عمته صارت منهم . اصبحت مثلهم ، تعمل ، ونعمل ، وتعمل ، لتنمي ثروة العائلة ، وتزيد ما تدخره هاجرة كـــل الدنيا . انعطف يمنة بين المزارع . سار على جسر ضيق بين احـواض الاذرة ، تتقاطع على ارضها ظلال الاضواء الغاربة الاخيرة . لو دخل بيتها الآن ، ودار بين اعوادها حول نفسه عدة دورات ، ثم توقف لفقـــد اتجاهـــه تماما ، فلا يعرف له شرقا من غرب . لزم لذلك الجسر ، ثـــم انعطف عند جسر فناة . سار معها غربا حتى خرج الى الطريق الواسع المترب. المساحات الخالية التي كانت برکا واجرانا تناثرت فيها البيوت الطينية بلا نظام . كوخ العرب الذي كان عشـــا صار بيتا مدهوكـــا بالطين ، مسقوفا بعروق الخشب . مناخ الجمال امامه لم يزل كما هو : الطوالة والجمال الباركة ، والجذع الباقي من شجرة سنط قضت عليها الايـــام والليالي . الكلاب صارت اكثر ألفة ، لم تنبحه كما كانت . لكنها ليست هي الكلاب الاولى التي شاخت وماتت . اجيال جديدة رخوة هي هـذه الكلاب . غريب هو عنها ، ولا ألفة في أنوفها لرائحته ، ومع ذلك تنظـــر اليه بحياء حفير . تتابعت الدور الجديدة التي لا عهد لـــه بها . رأى بعض رفاق عمره . نظروا اليه في دهشة . كبروا ، وطالت قاماتهـم ، وعرضت عظامهم ، وبرزت في اعناقهـــم تفاحات آدم . ولـــم يعيروه انتباها . لم يعد منهم . يلبس بدلة الآن . وبشرته طرية وغضة ، لـــم تلوحها اشعة الشمس . خجل ان يحييهم ، ان يقف معهم . ماذا سيقول لهم ؟ وماذا سيقولون له ؟ اللعنة . تغيرت الدنيا ، وقد غبت كثيرا حتى نسيت الارض ، ونسيك اصحاب الارض . عشر سنوات قامت فيها حرب كبيرة وانتهت ، وقامت حرب اخرى صغيرة وانتهت ، ومـات كثيرون، وولد كثيرون ، وخربت دور ، وعمرت دور ، واكتهل مـــن كان شابا . وشاخ من كان كهلا ، وانت غائب عن مسقط رأسك . تركته طفلا ، وتعود اليه مراهقا يافعا . تبدو القرية لعينيك كالذكرى ، كالحلـم . ليست هي التي عرفت . بيوتها صارت اضأل حجما ، مما كانت تبدو عليـــه لعينيك . اهلها صاروا اكبر ممـا كنت تعرف . اطفالها غرباء يتصايحون حولك في دهشة كالدجاج . كثيرون كثرة البيض فـــي معامل التفريخ بالمدينة . ازدحمت المساحات الشاغرة الفضاء التي كنت تعرف . زالت الاشجار المتناثرة التي كانت تحد البيوت ، تراجعت الى الخلف البعيد. انخفض ما كان تلا ، وارتفع ما كان وهدة . لكنك ما تزال تذكر الطريـق الى بيتك . على القرب منه شجرة جميز عتيقة . أوه . أيـن ذهبت ، طالما صعدتها ، وختنت ثمارها ، وأكلت منها ، وداويت قشور بثورك مـن قطرات لبنها . قطعوها بلا شك ، يوم سقط من فوقها « طلعت » فـــي العام الماضي . انكسر به الغصن الضخم فجأة ، ولم يكن علـــى طولـه مثلك ، سوى قشة بالنسبه لحجمه . ايه ، دنيا مضافة الديري ما تزال قائمة . كانت في عينيك تبدو كقصر ضخم عالي السور . الآن تشارف رأسك حافته ، تطول يدك نوافذه . أصبح جداره مبولة للاطفال ، وكان من قبل مسندا لظهور اجداد رحلوا جميعا ، ولم يبق منهم احد . تحت هذه النافذة كان يجلس الحاج ابراهيم . يقرقع بضحك سعيد ، يديـر الجراموفون ليغني عبد الوهاب : آحب عيشة الحرية . يصيح مناديا ، زاجرا :قهوة يا بنت . امش يا ولد . ايتها الدنيا . تمهلي قليـلا . ايتها القرية ، لماذا جئت اليك الآن ، وقد هجرتك سنين عديدة ؟! كيف اذن افتح قلبي لك ، وتفتحين قلبك لي ؟ كيف احارب مـــن اجلك ، ولست اعرفك الآن ، ولست تعرفينني ؟ صرت اكبر مما عرفتك ، وصرت اكبر مما عرفتني . لكن الحمير والجواميس والابقار ما تزال ، كمـــا عهدت بروح في طرقاتك وتغدو ، ولي معها ألفة لم تفتر في القلب مني . تنقبض شعيرات الشم في أنفي ، وتقم على معدتي . لكنني سوف آلفك من جديد ، وتالفينني . ستوحد بيننا حرب واحـدة ، لا اعلـم كيف تبدأ ؟ وكيف ستنتهي ؟

ـ مـن ؟ حسن ؟

والتفت حسن صوب الصوت . اول صوت ودود يذكره ، ويرحب به ، وينهض له صاحبه ، من بين اقاربه .

ـ ٢ ـ

لغرفـة الضيافـة اربعة ابواب ، أولها على الشارع ، اغلقه بالمفتاح والرتاج ، تانيها بمقابله يفتح على غرفة نوم مهجورة خالية الآن مـن أي اثاث ، فيها ولد ، وفيها كان يقيم أبوه وأمه ، ثالثها يفتح على فسحة البيت المسقوفة . ترك الاخيرين مفتوحين ابتغاء لنسمة هواء . رابعهـا بجوار الباب الثالث تقريبا يفتح على غرفة المندرة . فيمـا مضى كانت الغرفه مفروسه بمقاعد صالون ، اسفل منذ خمسة عشر عاما مع الاسرة الى المدينة . الان تحتلها آرائك بلدية مفروشة بالوسائـــد والمنكـــآت والملايات . آرائك المضافة لانها عامة ، وغير خصوصية ، عارية الا مـــن حصير مبسوطه فوقها ، وبدون وسائد . تردد بين الغرفتين ، في أيهما سينام ليلته . فيما مضى كان يفضل الرقاد صيفا على هـــذه الارائـك العارية ، فوق الحصر المضلعة ، طاويا ساعده تحت رأسه ، سعيـــدا حين يصحو من رقاده ، في الصباح ، ومع العصارى ، ينفوش الحصير التي تركها مطبوعة على جانبيه وظهره وساعديه . كانت رطوبتها الصيفية تجعله يستغرق في النوم والاحلام ، بسبب جدرانهـا وارضيتها المكسوة بالاسمنت الرمادي اللامع . الان لا قبل له بمثل هذه النومة . فليذهب اذن ليرقد على ارائك المندرة ، بالذات لانه متعب ، وقـــد اعتاد نـــوم الفراش منذ سنوات بعيدة .

اطفأ مصباح الجاز رقم (٣٠) وتركه يخشخش مهتزا في علاقتـــه الحديدية التي صدئت حلقاتها ، تحت طبق الزجاج المضبب ، المؤطـــر بشريط من النحاس المقصد المنقوش ، المقلوب فوقه . ودخـــل غرفـة المندرة ، تاركا الباب مفتوحا وراءه على مصراعيه . للغرفة نافذة خشبية تطل على الشارع ، تركها مغلقة ، خوفا من الناموس وهـــوام الليل . خافت من ضوء المصباح نمرة (٥) المجاور ، المعلق في سجاف النافـذة المقابلة ، واضطجع فوقها على راحته . كانت النافذة بجواره مفتوحـــة على فسحة البيت الرطبة . وتحتها فـــي الناحية المقابلة كانت أريكـة طويلة عالية القوائم ، ذات حواجز كسرير الاطفال في المدينة . على هذه الاريكة ترقد الان زوجة جده ، فوق حصير فرشت فوقه ملاءة ، ووضعت وسادة فراش نوم لا وجود له الان في البيت . وكانت الاصوات قـــد هجعت ، اصوات الناس والمواشي ، مـــع انتصاف الليـــل ، وانطلقت اصوات الليل : البوم ، والضفادع ، وجنـــادب المزارع ، والكـــلاب ، والقطط الجائعة والشبقة ، وهسهسات جريـــد النخيل ، واغصان

الاشجار ، وحفيف الاوراق ، واجنحة الخفافيش تروح وتغدو في ساحة الدار . رحل من جاءوا في اول ليلة له بالقرية ، لتحيته وعتابه على طول غيابه عن الاهل ، وهجره للناس . ورحل معهم عائدين بالخيبة اولاد الاقارب الذين جاءوا للسلام طمعا في وريقات نقود صغيرة . لهذا السبب لم يأت طيلة هذه السنوات ، اشفاقا على نفسه من الحرج . ابن شقيق جده سأله عن وظيفة في رش الطريق الزراعي غربي البلد . شقيقه الاخر طلب منه قميصا ليرتديه كالافندية على بنطلون أزرق اشتراه من السوق . لم يشفع له في اعتذاره كونه ما يزال طالبا يتعلم، ويعوله أبوه . لقد مضت عليه سنوات طويلة في المدينة ، وهذا وحده كاف ، للرفض الصامت لاي اعتذار ، حتى ولو صحبته حمرة الخجل ، وعجز الاحراج . البري شقيق جده الاخر ، رآه ذات مرة يتصعلك على محطة الدلتا بالمدينة ، فسأله كم يأخذ رانبا الان :

ـ اعتقد انك قد جاوزت الستين جنيها .

جاءه صوت جدته من الناحية الاخرى للنافذة المجاورة :

ـ آنستنا يا حسن .

ـ آنسك الخير .

ـ وكيف حالهم ؟

ـ بخير . وأنت ؟

ـ نحمده ونشكر فضله .. أبوك لم يأت منذ زمن ؟

ـ مشاغله كثيرة .

ـ قال لي في اخر مرة انه سيبيع هذه الدار .

ـ لا يمكن . لا تصدقي . هذا بيت العائلة الكبير .

ـ أحس بالقلق ، لان البيت يؤويني ، حتى يأتي أمر الله .

ـ لا تخافي . لن يبيع أبي الدار .

في قرارته كان يشعر أن أباه يوما سيبيع هذا البيت الكبير بغرفه الست عشرة . لقد بدأ فعلا في بيع الارض ، نصف فدان ، بنصف فدان ، ليكمل نفقات الاسرة في المدينة ، ونفقات تعليمه هو واخوته . ماذا بوسعه ان يفعل ؟ يشعر ان قطعة عزيزة من قلبه ، جانبا كبيرا من حيانه وانتمائه الى هذه البلدة ، سيموت خنقا ، لو بيعت هذه الدار. عزم الا يحدث ذلك يوما ، ابدا . كل شيء في البيت مائل الان في روحه : الحظيرة ، وقاعة التبن المظلمة والطلمبة المجاورة لبئر دورة المياه ، بمائها العذب ، وحوضها العطن الازرق من مياه الصابون ، والمزيرة الملاصقة ، والقاعة المعتمة التي كان ينام على مصطبتها ، بجوار الفرن . هو واخوته مع زوجة جده ، وجده الذي مات منذ عام . مرض في المدينة شهورا مرض الموت ، وعاد الى القرية في أيامه الاخيرة ، ومات ، ودفن ، ولم يشهد موته ، ولم يقف على قبره ، بقي حسن مع اخوته بالمدينة ، الى حين الانتهاء من وداعه ، وعودة أبيه وأمه . آثرت زوجة جده البقاء هنا . هنا عالمها الصغير الاليف ، وقد بدأت تنوشها امراض العمر .

تحت السلم يقبع فرن الخبيز الكبير . في الطابق العلوي ما تزال الغرف الخمس قائمة : مقعد نوم أبيه وأمه الصيفي المطل على الشارع ، وغرف البط ، والاوز ، والدجاج ، والحمام ، الثلاث . الغرفة الاخيرة تطل على السلم ، تدير ظهرها للجيران ، وجانبها لمنور الحظيرة ، ما تزال تقف متصالبة فوق غرفة التبن . كان السطح امام الغرف الاربع المتلاصقة مناماته الصيفية مع اخوته وجده وزوجة الجد . على حصير واسع ، كم عد فوقه نجوم الليل ، وراقب الطائرات المسافرة شرقا وشمالا ، على سطح البيت قام حريق ذات يوم في سقف غرفة الدجاج. وفي جدران المقاعد العلوية قضى مرارا بنفسه ، مع ندى الصباح الباكر، وبالماء الساخن ، على أحجار الزنابير الحمراء ، واعشاش الزنابير الصفراء ، بعد ان سد مداخلها بالطين .

وراقب أعالي الاشياء حوله ، الاسطح المتلاصقة وهامات الاشجار، ومساحات المزارع ، واهتزاز سعف النخيل ، وارتعاشات الضوء ، وهبوب الرياح المحمل بالغبار ، ورفرفة الطيور ، والتماعات الفراش ، واسراب أبي قردان التي تملأ الارض المغمورة بمياه الارز مع الغروب . هذا هو بيته ، فكيف يباع . يكفيه الهجر له والغياب ، وانقطاعه مع الذكريات عن انفاس الاحباب .

جاءه صوتها عبر النافذة المفتوحة من جديد :

ـ حسن . صاح ؟ يجب ان نزور قبر جدك .

ـ سأفعل . غدا ، في الصباح . اخبريني . التوتة التي في مدخل المقابر ، ما تزال هناك ؟

ضحكت . قالت :

ـ لن تبقى الى الابد . لكل شيء أوان .

كم صعد فوقها ، وأكل من ثمراتها الحمراء كأوراق الورد القانية . أكل معها عصيرا من عناصر الموتى ، دفعته التربة عبر اليافها . لا يعرف احد هنا ما أعرفه عن الاله « توت » رب الحكمة والمعرفة ، عند الاجداد القدماء لهذه البلاد . باسمه سميت شجرة التوت بشجرة التوت . لم يقل كتاب ذلك ، لكنني اعتقد انه حدث ، وتقليدا ونخليدا لذكراه تزرع أشجار التوت في المقابر ، جسرا بين الحاضر والماضي ، ومن ثمراته يرتوي الاحفاد بعد الاجداد بعصير المعرفة ، ورحيق الحياة .

*

طال الليل ، واستعصى الرقاد . عقله صاح ، وعيناه مسهدتان . حار متفكرا من أين يبدأ مع الناس ؟ بأيهم يبدأ : برجال الادارة ، ام بأولئك الذين لا حول لهم ولا طول ، ام بمن يعيشون عالة على الغير : وزعران القرية ؟ ماذا عساه ان يقول لهم ؟ لم يجرؤ ان يستأذن اباه في هاتين الحجرتين للنادي ، لم يقدر ان يفاتح زوجة جده في هذه المسألة. فلسوف تواجه منها لو حدثت الكثير من المتاعب ، وفقدان الراحة ، واقاويل الناس . لكن ذلك ينبغي ان يحدث على أي حال . وعلى الجميع ان يواجه الموقف : أبوه ، وزوجة جده ، ورجال الادارة . .

سيذهب الرجال الى الحقول مع الصباح ، لن يبقى في القرية سوى النساء ، والاولاد ، وطلبة القرية العاطلين في اجازة الصيف . فليتحدث اذن مع كل من يلقاه في النهار : الطلاب ، والفلاحين في المزارع ، والزعران الغافين تحت النخيل والاشجار في الحقول القريبة. سيكون بحاجة الى هؤلاء المتمردين لحماية حركته ، وبث الرعب في رجال الادارة . ينبغي ان يركز بصفة خاصة على عائلات القرية القوية والمستضعفة ، والتي لا دخل لها في لعبة الادارة . عليه ان يتفادى الان وقوع الرفض الاول ، لعائلة العمدة ، وحاشيته من مشايخ البلد والخفراء ، وطلاب عائلته الذين يعلم انهم كثيرون . سيحدث صدام ما ، يقينا سيحدث ، ستجري مفاوضات ، يقينا ستحدث . لكن فليبدأ من مركز قوة لا ضعف ، من ضغط الجماهير المستضعفة ، المتنورين منهم والفقراء ، والمتمردين ، والمتربصين ، والحاقدين ، والشامتين .

تساءل للمرة الالف : لماذا يرفض رجال الادارة في القرية ناديا للطلبة ، يملأون به فراغ الصيف : هل هو مجرد الخوف من تجمع الناس ، من تشكل كتلة من طلاب القرية سيكون لها حتما كلمة في كل ما يحدث بها ؟ ربما . رجح ان ذلك هو واقع الامر وحقيقته ، وراء الرفض المائل ابدا . تساءل بشك عن مدى وقوف عائلة ابيه معه ، عن مدى قدرة الطلاب على التجمع ، عن مدى قدرته هو على كسب المعركة، وتخطيطها ، وتدبيرها . عليه ان يحاول منذ الغداة ، فقد جاء غازيا ، ووضع رأسه بنفسه في الخيمة ، انتشر خبر وصوله سريعا في القرية، وجاءه عن الطلاب عطية ، وحافظ ، ولم يعد ثمة تراجع ولا فرار .

تقلب في مضجعه مرارا ، نهد كثيرا وزفر قلقا ، الجو خانق الانفاس ، وعرقه يتفصد ، وخراطيم البعوض تناوشه بالطنين حول أذنيه ، ولذع مسامه ، ومص دمه . في ادغال افريقيا رأى البيض ، في الافلام ، يطلون اجسادهم بسائل ينفر منه البعوض ، وهوام المناطق البدائية . حصن نفسه بحبة الكينين اليومية ضد الملاريا . لكن ، هذا الوخز المستمر ، والطنين الذي لا ينقطع . ود لو يعزف ناي بعيد في

يد فلاح ساهر عند الساقية . لم يسمع سوى جوقة الاصوات الليلية ، تمزقها نغمات الطنين النشاز لاجنحة البعوض . شم رائحة ثقيلة ، زنخة ، لحشرات الجدران الحمراء . احس بوخز احداها له في عنقه. فعصها ، فاحت الرائحة القديمة المنسية بصورة لا تحتمل هذه المرة او تطاق . جذب جلباب الدبلان البلدي حول عنقه ، اعلى رأسه . تعرت ساقاه للبعوض والحشرات الحمراء الهائمة ، تكور على نفسه داخل الثوب الفضفاض الذي آتاه به محمد بن مصطفى ، ابن شقيق هو لجده ، مع صدار من القطن المقلم باقلام زرقاء وبيضاء ، ومؤطر بقطان اسود من الحرير ، في هيئة عراو عديدة متتابعة . اتاه مع الجلباب بطاقية بيضاء وبلغة مغربية صفراء ، محدودبة من الامام كبلغة حجا . ينبغي ان يعيش مع الناس ، بملابس الناس ، وطعام الناس ، ومنامة الناس ، على الاقل هذه الايام القليلة ، التي يسعى فيها لهدف خاص . لا ينبغي ان ينفر منه احد لمظهره المتمدين . ضاق صدرا بالبعوض والحشرات الحمراء . ينبغي ان يحتمل ذلك الليلة ، والليالي التالية . ان يعتاد عليهما ، وينام . كيف ينام والمضجع غريب والاصوات منسية ، والعقل قلق ، والجسد لا يستريح .

انقلب على بطنه . تضاغط في الفراش . ينبغي ان يهدأ هذا الجسد ، ان تضعف حيويته ، ومقاومته ، وردود فعله . ينبغي ان تسترخي اعصابه المشدودة ، تذكر البنت نفيسة ، وضع رأسه على فخذها يوما ، وراح يتاملها ، وهي جالسة اليه بين اشجار الجوافة . تذكر البنت حميدة الزرقاء العيون ، الشاهقة البياض . تذكر امها عرب ، الانثى الفائرة ، التي تنحدر من عرق فرنسي ككل ابناء اسرة الديري ، وزوجها الاسود الذي كانت امه امة يوما لهم عرب . عراهن جميعا واحدة بعد اخرى عانقهن ، واستدعى اليه اسرار اجسادهن ، عبر ماض قديم تتابعت على طفولته السنين . وراح ينتفض ويرتعد ، وزكمت انفه روائح البيض والعجين ، واشتعل تحت جلده دفء غامر ، كنيران الفرن يوم الخبيز ، تلته رطوبة باردة ، حلوة ، وهمد كل شيء ، ونامت منه الاعصاب والعينان والاذنان ، على مشهد كئيب لعرب ، رآه وهو يمر تحت نافذة في مضافة الديري . كانت عمياء ، شاخ منها الوجه ، وتخضب شعرها بالحناء ، وبانت عروق عنقها جافة نافرة ، في فتحة ثوب اسود ، لا يذكر انها ارتدته من قبل . مات زوجها ، وقبله ، وبعده ، مات لها اكثر من بنت وولد .

— ٣ —

مع الصباح الباكر ، ذهب مع شقشقة النهار الى المسجد على غير وضوء ، ولا تطهر من حدث الليل . قرف ان ينزل الى مفطس المسجد ويغتسل بمياه سبقه اليها الاخرون . وقف في الصف الوحيد خلف الامام ، وصلى ركعتين . يعرف في قرارة نفسه انه لم يات هنا عن ايمان . دور يلعبه وضريبة يؤديها لغاية في نفس يعقوب . لم يقطع في مسالة دينه حتى عامه برفض او قبول . لكنه بدا يشك في حقيقته وجدواه . اكتشف انه مجرد قناع اجتماعي ، يخفي الخطايا ، ويبرر للظالمين الخطايا ، وباب التوبة واسع ومفتوح . ليس سوى كلام وتمثيل التامل في الواقع يفضحه ويعريه . الامام الذي يقف وراءه الآن ، يعرف انه لا هم له في دنياه ، على كثرة ما يحفظ من سير ومواعظ ، سوى ان يملأ كرشه الواسع ، ويزيد ماله بالبيع المؤجل ، بربا النسيئة، زاعما انه مشروع على مذهب ابن حنبل . يصلي ويفتي بمذهب ، ويتاجر بمذهب آخر ، وباب الفتاوى والاقوال مفتوح المصاريع ، يحرم الحلال في قول ، ويحل الحرام في قول آخر . لنفسه يفعل ذلك ، ولمن يريد ان يخدمه من اهل الجاه واليسار. الفقراء وحدهم والمستضعفون لهم فتوى واحدة ، وقاسية ، هي دائما اسوأ الاقوال والحظوظ . ثقيل السمع هو ، ثقل طبقات الشحم في بدنه المتورم ، ووجهه المكتنز ، الا حين يتصل الامر بمال او منفعة . وقد جاء حسن هاربا من جيوش الحشرات الحمراء ، وغربة المرقد ، ولولاها لظل غافيا ، حتى تصعد الشمس فوق بيوت القرية .

عاد الى البيت وافطر . شرب شايا ولبنا ، واكل قشدة وفطيرا وبيضا وعسلا ابيض . جلس مع الضحى في غرفة الاستقبال ينتظرهم ، وجاءوه واحدا بعد آخر . كل الطلاب من غير عائلة العمدة جاءوه فرادى — يخشى احدهم ان يراه الآخر ، وهو يتحدث معه ، ويدعوه الى مساعدته في الدعوة الى النادي — فمن اجلهم جاء على غير موعد . ذهب مع الظهر الى المزارع البعيدة ، ليلقى الناس ، ويتحدث اليهم . كانوا عنه في شغل شاغل . يعجبون لحماسه ويقولون :

— ولم العجلة ؟ الايام طويلة . ابق معنا عاما ، وسوف نفتح النادي ، وتعمل اشياء كثيرة .

— يا ابني ، يا حسن . انت افندي ، ولن ينصت اليك احد . سيتفرجون عليك . هذا هو حال الناس هنا . كل من ياتي منكم ، من الافندية ، يتكلم ، يتكلم . همتك معنا . اخلع بلفتك وشمر كميك ، وتعال ساعدنا في الارض .

عاد بالخيبة بعد طول تجوال . جائعا ، يضايق تراب الطريق قدميه داخل البلغة . مر بالمقابر فعرج اليها صاعدا هضبتها ، عبر جسر من الطوب والطين ، زالت شجرة التوت ، واندثرت اعشاب المقابر المعهودة ، ونمت في اماكنها شجيرات صبار واشواك . ازدادت المقابر عددا ، ودبت في ارجائها الشيخوخة ، حتى حجرات الاستقبال الفاخرة، تهدمت اعاليها ، وتكسرت ابوابها . لكن الطرقات ما تزال معهودة ومالوفة . ها هي مقابر عائلته جيلا بعد جيل ، وها هو القبر الرابع ، القبر الذي دفن فيه جده قبل عام ، مع زوجته ، ام ابيه جليلة ، التي رحلت منذ امد بعيد ، قبل ان تستوعب عيناه اية ذكرى لها . اقعى بمقابل القبر . كل شيء آسن وراكد ومقرف . نهاية مفجعة ، كنهاية الكلاب التي لا تؤلم احدا. كان جده ملء سمعه وبصره ، حياة باسرها. الآن لا شيء منه سوى عظام نخرة ما يزال يذكرها طويلة وفارعة . مدخل القبر ما يزال مسدودا وقويا ، على تهرؤ احجاره . وجد نفسه ، رحمة بجده لا غير ، يقرأ له الفاتحة بقلب نصف خاشع ، عاش جده بصراحته في عزلة قاتلة عن الناس . نال احترامهم ، وفقد حبهم . ذكروا عدالته ، ولم يجدوا له لمسة رحيمة واحدة . لكنه هو يعرفه : قلبا عامرا بالحب ، عقلا مترفعا بالنبل ، نفسا عزوفة عن الصغائر والدنايا . الآن ، انتهى منه كل شيء . الكل باطل . باطل الاباطيل وقبض الريح . ما الفائدة من كل شيء : العدل والظلم . الغنى والفقر. الجاه والضعة . الكل باطل وقبض الريح .

غادر المقابر عائدا الى القرية . في مخيلته ما يزال يراها ملقاة في الارض السبخة ، تحت اضواء خابية لشمس القيلولة الميتة . مر بمدرسة القرية المهجورة في الصيف . غرفات من طين الارض ، طليت عشرات المرات بالجير الاصفر . عشر غرف لا غير ، فيها قضى سنوات طفولته الاولى ، ثلاث سنوات . تحت هذه النافذة كان جده ينحني مطلا برأسه يرقبه بفرح بين الاولاد . في هذه الغرفة غاب مدرس الفصل ، وجلس ناظر المدرسة الاسمر الطويل النحيل ، فوق درج طالب غائب ، يحدثهم عن الله ، وكيف انه موجود في كل مكان ، في كل زمان . على جسر هذا المصرف امام المدرسة ، كانوا يتحلقون حول خليل . كان يجيد الحكاية واختراع القصص ذات الاحداث الخرافية المرعبة ، ويجذب انتباه كل العيال ، فيظلون جالسين بعد ان يدق الجرس ، ويتشاجرون على الجلوس بجواره بعد دخول الفصل ، ليحكي لهم هامسا ، والمدرس مشغول بشرح القسمة المطولة على السبورة، يشرحها الشيخ بدران مستعينا بعصاه القاسية ، حين يخطيء احد في القسمة والضرب . مشهده مقرف ، وهو يدخل يده من فتحة ثوبه الجانبية ، ويحك بين فخذيه ، ثم يرفعها الى انفه ، ويشمها في تافف ، فتنقبض ملامحه ، بين العينين ، وحول الانف والفم . كان حسن يخلع حذاءه ابا رقبة ، ويحمله تحت ابطه ليسير حافيا كبقية

الاولاد . ود لو يعرف ، مجرد معرفة : من من الاولاد تعلم الآن ؟ ومن نسي ما تعلمه ؟ من عاد الى زراعة الارض ؟ ومن ذهب باحثا عن عمل في المدينة ؟ من منهم مات ؟ ومن بقي موجودا على قيد الحياة ؟ يحس بفتور الهمة والاعصاب ، ويواصل أوبته ، عابرا قنطرة المصرف . ويسرع الخطا في الطريق الدائري للقرية ، نحو البيت . يحاول في داخله أن يسعد نفسه ، بزوج الحمام الذي وعدته به زوجة جده . وطاجن الارز باللبن ، الذي ستنضجه له بالفرن ، وغفوة القيلولة على الاريكة العالية في فسحة الدار .

*

بعد العصر ، استيقظ من نومه . فكر ان الوقت يسرقه ، والساعات تمضي عليه في هذه القرية دون ان يصنع شيئا . غسل وجهه ، وقدمت له زوجة جده كوبا من الشاي ، احتساه على مهل . وشعر انه قد افاق من نومه تماما ، فمشط شعره ، وسوى ياقة الجلباب ، وصداره ، ودفع قدميه في البلغة المغربية ، وغادر البيت . يود ان يلقى احدا من الناس ، لم يجد في طريقه سوى الاطفال وبعض النسوة ، انعطف عند جذع الجميزة المقطوعة ناحية بيوت الديري . سار على مهل . فكر ان الوقت في هذه البلدة بلا ثمن ، لا قيمة له على الاطلاق . تذكر من تجاربه البعيدة ، ان الساعات هنا لا حساب لها . اوقات النهار الشمسية هي التي يحسب بها الناس مرور الزمن . اوقات فسيحة فضفاضة . كثيابهم ومشاعرهم وافكارهم واحلامهم . اوقات الليل يحسبونها بساعات الصلاة ، وما عداها ضائع لا وجود له .

فكر ان يمضي الوقت بصلاة العصر في مسجد الديري . كان المسجد امامه . ازدادت جدرانه الوردية سوادا وتهرؤا ، وتهدمت اعالي الجدران ، وبرزت عروق السقف الخشبية من جوانبه . دار بخاطره أن يتوضأ . فكر انه ما يزال جنبا من الليلة السابقة . لم يعر ذلك الخاطر اهتماما . دخل المسجد من بابه الاخر . دورة المياه ما تزال مصفوفة متراصة على يمينه ، خلفها خزان المجاري عاريا يثقل المكان برائحته . في مواجهته غرفة المغطس بدرجاتها الحجرية . تبدو كالبئر الذي ظل يخاف منه دائما . بين المغطس وحنفيات الوضوء مصلى صغيرة ، صارت الان بلا حصر عارية ، ملات الثقوب والحفر نواحيها ، جلس على سورها الخشبي ، ونزع بلغته . وضعها جانبا . ثم اقتعد سور حوض الوضوء ليتوضأ . راى دودة في قاع الحوض الجاف تتلوى . يدور حولها النمل من كل جانب . يقرصها ، يفتتها ، يمزقها . راقب ما يجري امام عينيه . فكر في صراع الحياة والموت ، راى الدودة تدافع عن نفسها بلا سلاح ، بارادة البقاء وحدها راقب عجزها الرهيب في مواجهة الموت . الويل لمن كان في مثل موقفها وحظها التعيس . مصادفة بالنسبة لها ان يأتي هو ، ويجلس هنا ، ويفتح الماء ، لينقذها ، ويفرق النمل ، يحكم عليه بالموت بدلا منها . ماتت الدودة ، او مات النمل ، فالموت قائم في كل لحظة يفترس كائنا حيا . فكر ان احدا من الناس لم يات للصلاة في مسجد الديري ، الحوض الجاف ، وهذه الدودة وتلك النمال التي تنزلق معا نحو البالوعة ، يؤكدان ذلك .

اتم وضوءه بعناية ودقة مستمرئا رطوبة الماء على جلده ، ونهض ، واخذ بلغته ، وهبط درجتين الى ساحة المسجد . تهدم سقف الساحة من الداخل في اكثر من موضع . الاعمدة الخشبية الافقية والراسية التي تحمل السقف اصبحت مهددة بالتقوض ، السلم الخشبي المؤدي الى السطح تداعت درجاته وقوائمه . لم يعد يرتفع اذن من فوق سطح المسجد صوت مؤذن . أدار وجهه تجاه القبلة . ووقف ليصلي . لاحظ ان الحصير تحت قدميه متترب ومسود من البلى . رفع يديه مكبرا لصلاة العصر ، بصوت يسمعه عابر الطريق . راح يصلي بخشوع مطيلا قراءته ، ومبطئا حركات الصلاة . تمنى ان يراه أحدهم ، ليثق به ، ويتحدث عنه للاخرين . بمثل هذه الورقة يكسب عواطف الناس . احس باحدهم يدخل المسجد من بابه الرئيسي خلفه . أمعن في خشوعه ، دخل الرجل المجهول ووقف عن يمينه ، متاخرا خطوة ، ونوى ، وكبر . دخل معه في صلاة جماعة . وجد نفسه اماما ، فراح يمثل دوره باتقان . حين سلم يمنة ويسرة جلس يسبح ويستغفر على عقل اصابعه ثلاثا وثلاثين مرة . كان الاخر يستكمل وحيدا ما فاته من ركعات الصلاة . أدار حسن ظهره للقبلة مع تسليمة الرجل من صلاته . انشرح صدر حسن لرؤيته . الحاج عبد العزيز عميد اسرة الدسوقي . هنأ احدهما الاخر بالصلاة :

ـ حرما .

ـ جمعا ان شاء الله .

ـ حمد الله على السلامة .

ـ الله يسلمك .

ـ قم بنا !

ـ الى اين ؟

ـ نشرب قهوة معا . قم يا رجل .

نهض معه . وخرجا من المسجد . انحدرا من تلة المسجد الى بيوت الدسوقي . قال له امام بيته :

ـ الدنيا حر . سنجلس على المصطبة امام الدار .

على المصطبة كان قد فرش في الظل حصيرة ، ووضعت وسائد للظهر ، واخرى للاتكاء عليها . جلس سعيدا ، مستروحا نسمة العصر . تختلط فيها روائح التراب ، بروث البهائم بانفاس المزروعات خارج القرية . ودخل الرجل بيته . غاب لحظة ثم عاد وجلس على جواره محييا . عزم عليه بسيجارة لف . ود أن يأخذها منه ، لكنه فكر ان ذلك في نظر الرجل امر غير طيب ، انه في النهاية ضد هدفه . راح يبحث في عقله عن نقطة لبداية حديث موضوعه . اكتشف انه من غير المستحب ان يدخل في موضوعه مباشرة . لا بد له من ان يلف ويدور ، فماذا يعني الحاج عبدالعزيز من امر النادي ؟ خمن ان حال المسجد ينبغي ان يكون نقطة بداية اولى . قال :

ـ زمان . لم يهجر مسجد الديري بهذه الصورة . كان الناس يهتمون باصلاحه وتجديده .

انطلقت اسارير الرجل ، وانبسطت ملامحه . قال :

ـ زمان . الان ، فسد الناس ، ويرحم الله الجميع :

قال حسن :

ـ المسجد لا يحتاج إلا الى جمع تبرعات لاصلاحه .

قال الحاج عبدالعزيز :

ـ لا احد يفكر في ذلك منهم .

قال حسن :

ـ لان احدا لم يدعهم الى ذلك .

ضحك الحاج عبدالعزيز وقال :

ـ بل ان احدا منهم لم يعد يصلي .

ـ لنجرب .

ـ حاول يا بني . ربما كانت البركة في يدك ، وانا اول من يدفع .

ـ بارك الله فيك يا حاج . انت بقية من اهل الخير في قريتنا . يرحمهم الله ويحسن اليهم .

رمقه الحاج عبدالعزيز في دهشة . قال :

ـ بارك الله لابيك فيك يا ولدي . تفضل .

وقدم له فنجانا من القهوة ، موضوعا على مظروفه . اطال النظر الى مظروف الفنجان . منذ سنين بعيدة ، لم ير هذا المظروف عند احد ، انتهت ايامه وبدا لعينيه الان غريبا ، وحبيبا كالذكرى . قال حسن للحاج عبدالعزيز :

ـ ما رأيك يا حاج ؟

ـ فيم ؟ تفضل .

ـ طلبة البلد يريدون ناديا يجمع شملهم في اجازات الصيف .

ـ نادي ؟ وما الفائدة منه ؟ سيفسد بعضهم بعضا ، بسبب اجتماعهم معا .

ابتسم . وراح يشرح للحاج قيمة النادي للطلبة ، وللناس .توقف الحاج عند حديثه عن الكتب التي سيطالعها الطلبة في مكتبة النادي . قال :

ـ والله فكرة . على الاقل يوسعون عقولهم ، ولا ينسوا العلم الذي درسوه .

ـ هل انت موافق اذن ؟

ـ طبعا يا بني . لدي عشرون طالبا من ابناء الدسوقي . اوجد النادي وانا ادفع لك اشتراكاتهم جميعا .

ـ عداك العيب يا حاج .

ـ لا احد يكره فعل الخير .

ـ يوجد يا حاج .

ـ من يا ولدي ؟

ـ رجال الادارة ؟

ـ تفاهم معهم . لكن لماذا يكرهون المصلحة ؟

ـ لا اعرف يا حاج . هل تذكر حكاية البنداري ؟ كانت بسبب النادي .

قال بدهشة :

ـ بسبب النادي . لكنهم لم يقولوا لنا ذلك . رجال الادارة ، العمدة والمشايخ قالوا لنا انه عمل مظاهرة شيوعية .

ـ حاج . هل تصدقني ؟

ـ نعم يا حسن يا بني . اصدقك . انت تصلي وتعرف الله .

ـ لقد كذبوا عليكم . والحقيقة انهم خائفون من النادي . لم يقولوا لكم السبب الحقيقي .

ـ لكنهم ضبطوا في جيبه منشورات ضد الحكومة ، وشيوعية .

ـ هم الذين دسوها في جيبه يا حاج .

ـ قاتلهم الله . ابن يذهبون من حسابه ؟

ـ هم يفكرون في حساب الارض ، واستغلال الناس ، وشراء الاطيان ، وسرقة حقوق الاهالي من التموين .

ـ به يه يه . انت تعرف اذن كل شيء . احترس لنفسك يا ولدي . انا معك لساني يدعو لك ، وقلبي يؤيدك ، وجيبي تحت امرك .

ـ شكرا يا حاج عبدالعزيز . انا اريد شيئا قبل جيبك . المال اخر شيء يلزم لاتمام اي مشروع ، للمسجد ، او للنادي .

ـ ما الذي تريده اذن ؟

ـ ان تقف معي وقت اللزوم !

فكر الحاج عبدالعزيز برهة ، ثم تنهد وقال :

ـ ربنا يقدرنا على فعل الخير . اعتبر اولاد العائلة من الطلاب معك .

ـ اشكرك يا حاج . لكن اريد معهم نفسك .

ابتسم راضيا وقال :

ـ توكلنا على الله . توكل على الله يا بني ، ولا تخف شيئا .لكن. اخبرني . هل ستقيم معنا دائما ؟

*

انصرف السامر ، وانفض الزوار من المضافة : الطلاب ، والاقارب، والعيون ، والفضوليون ، والاباعد ، والمتسولون المشوهون ، والاولاد المتلصصون بنظراتهم من جوانب الباب المفتوح . وتأهبت زوجة جده لوضع عشائه قبل ان يذهب . اغلقت الباب ـ واطفأت المصباح نمرة (٣٠) .

ـ التتمة على الصفحة ـ ٥٤

القبلة الأولى

على شفاهها
رائحة احتراق الطوب في القمائن
رائحة التحول الغريب
والفواكه المنسيّة
في باطن الارض
وفي داخلنا .

* * *

كالطوب الاخضر
لا بد وان نصهر ، نصهر
أن نحترق ليال وليال
أن تشعل فينا النار
وأن نأكل انفسنا
ان لا نهرب
أن نفقد كل رطوبتنا وغثائتنا وملوحتنا
والتبن بداخلنا
والكذب
وأن يبقى الجوهر
حتى نصبح طوبا أحمر
طوبا من نوع آخر
صلبا ، شفافا ، لا يهزم
حتى يمكننا أن نبني لامانينا
بيتا
يتحمل سوء الطالع والمستقبل .
على شفاهك احترقت .

القاهرة

يسري خميس

الغـــزوة الواحدة بعـد الالف

تتمة المنشور على الصفحة ـ ٣٢ ـ

وجلست معه للعشاء ، ثم قدمت له فنجانا من القهوة ، مصه على مهل. ونهض . طرح طرف الشال القطني الذي جاءه به محمد ابن عم ابيه، ليحميه من رطوبة الليل . كانت الدنيا ما تزال ساخنة الجو ،تفحصهدا، وعرفه بعد عشاء من العسل الابيض ، والقشدة ، والبيض ، بتفصد من مسامه . سألتـه :

ـ متى ستأتي ؟

اجابهـا :

ـ لا اعرف . لا تعملي حسابي . ربما تأخرنا حتى الصباح، وربما نمت هنـاك في شكمـة الحاج مصطفى .

قالت له حانية ومحذرة :

ـ طيب يا حسن . خذ بالك من برد الفجر . تغط جيدا بحـرام من الصوف ، اذا نمـت هنـاك .

ابتسم لها . واخذ منهـا مفتاح البيت ، وغادرهـا على مهل ،فما يزال في الوقت متسـع . وتأكـد من نقوده المفروطة الى ورق صغيـر فـي جيبـه .

في شكمـة الحاج مصطفى . كانوا ينتظرونه . بدا انهم جاءوا منذ فترة قصيرة . فمـا يزال يراد الشاي موضوعا على جانب بمائهالصافي، وما زال محمد يروح بطرف جلبابه بيـن يده على النار ، لتشتعل فـي الاغصان الجافة ، وفوالح الذرة . وكانت الجوزة مهيأة لسهرة الليـل بطولـه . وعلى جانب الشكمـة صينية الاباريق والقلل مليئـة بالمياه التي بردت من المغرب ، تفوح منهـا رائحة الورد ، وتحمي فوهاتها مـن حشرات الليـل غطيـان نحاسية مجلوة ، تبرق بوهن في ضوء المصباح المعلق على سجاف الباب . كانت الشكمـة مفروشة بالحصر المنقوشة باعواد من الحصير حمراء وخضراء . وعلى داير الشكمة تصطف وسائد محشوة حشوا متينا بالقطن ، ومكسوة بأغطيـة بيضاء ، تحية لقدومه. لم ينهضـوا لتحيته ، لكنهم عبروا جميعـا عن الترحيب به ، وقدم له محمد فروة خروف بيضاء دسمة الشعر ليجلس عليها ، لكنه نحاهاجانبا معتذرا لهم ، بانه يريد الجلوس مثلهم على الحصير . وران عليهم صمت طويل . سكنت معه الالسنة ، ولم تتوقف الخواطر . يلوح ذلك فـي العيـون التي تسارقه النظـرات ، والجلسات الصامتة المتأملة .

كانوا رفقة الليل في كل ليلة . يخشاهـم الاهالي ويحترمونهـم ، ويثقون بكلمتهم ، لكنهم لا يكنون لهم حبا . يعرفون كل شيء عنالقرية ويعيشون في اعماقها ، ومع ذلك يحيـون فيها على الهامش لا يخضعون لعادات القرية واخلاقياتها وتقاليدها ، حين يتعارض ذلك مع مصالحهم الخاصة . يعيشون كريفيين في المظهر ، لكنهم لا يحترفون الزراعـة ،ولا يمارسون أيـا من عملياتها ووسائلها ، وان عرفوا الى درجة المهارة كـل شيء عنها . متمردون ، ساخطون معتزلون ، يحيون عالة على القريـة بسواعدهم وجرأتهم ، واستعدادهم الدائم للمغامرة والمقامرة . يبـدون دائمـا في خير حال ، بطواقيهم المخروطية الموجـة على الرؤوس ، وشيلانهم الموفورة العرض والطول ، وثيابهم الكشميرية الرمادية اللون، وجواربهم المرفوعـة حتى اعلى الساق بالحمالات المطاطة ، واحذيتهـم ذوات الرقاب الطويلة ، التي تشد جلودهـا على الجانبين شرائح مـن خيوط المطاط . في النهار ينامون ، وفـي الليـل يستيقظون ، الـى ان تصيح الديكة ، ويشقشق النهار . ليال قليلة في العام هي التـي لا يجتمع لهم فيهـا سامر ، حين يكونون مشغولين بتدبير معاش عامهم. يسرقـون عروق الخشب من الحظائر ، ويجمعون أكياس القطن منالمزارع ويملأون الاشولـة بكيزان الذرة والارز . يعمل كل منهم لحسابه ،ونادرا ما يشتركـون في عمليـة واحدة ، حين يمس لاحدهم طرف ، فيجتمعون معـا للتخريب والنهب والانتقام . ابناء الليـل هم وزعرانه لذلك يتقي ميسورو الحال شرورهم بالعطاء حينا ، او باستئجارهم لحراسة الارض والحظائر والسهر على السواقي . في ايـام الموالد ينقلب ابناء الليـل واشقياؤه الى مريدين رفع عنهم الحجاب ، تحميهم اسرار الولايـة بيد العنايـة ، يحملون الاعلام ، ويدقون البـــازات ، ويبتلعون النار ، ويفرسـون الاسياخ ، بيـن الخدين ، في اشداقهم من الشدق الـى الشدق ، ويدكون السيوف في افواههم حتى المقابض ، ويغنون ويرقصون ويترنحـون في حلقات الذكر كفرسان مغاوير ، بعد ان سكروا حتىالثمالة من أقداح البوظـة . ولا حرج عليهم فيمآ يفعلون ، ولا عتاب ولوم ،فهم في هذه الموالد ، من المريدين الذيـن رفع الحجاب والتكليف والحساب. واهل نجدة هم . لم تتعرض القرية لسرقة او غارة ، او سطوة قاطـع طريق غريب يفرض الاتاوة ، الا وخرجوا اليه بالبنادق والنبابيت،وعادوا بالمواشـي ، واهدروا دمـاء المعتدين . لذلك تحتملهم القرية ،وتعتبرهم على مضايقاتهم ونكباتهم الصغيرة ، غير المتوقعة ، جزءا من صحتهـا ومرضها ، كمياه الترعـة الملوثة التي لا بدمنهـا ، ولاراد لقضائها . وحين تسقط لاحدهم بهيمة من الكبر او المرض ، يسارعون بذبحها ، وشرائها لحسابهم ، ويبعها عند الصاري امـام مسجد ابن عنانمشتركين في الثمن والربح والخسارة . وبينهم اخوة لا تخطئهـا العيون ، جيوبهم مفتوحة احدهم للاخر ، مودتهم لبعضهم في الصحـة والمرض ، واليسر والعسر ، لا تخفـى على احد . لا يشعر احدهم بالراحة والرضا حيـن يشرب وحيدا كوبا من الشاي او يشد انفاسا من الجوزة ، حتى ولـو كانت بدون غموس . لذلك نراهم دائمـا معـا في جماعات صغيرة ،ندر ان تجتمع دائمـا في مجلس واحد . فبينهم ، كسائر عائلات القريـة، عصبيـات عائليـة ، تربط اشقياء كل عائلـة في جماعة واحدة . تؤازرها عائلتهـا ، وتحتمي بهـا على قدر ما لهـا من قوة بالعدد ، وسطوة بما تملـك من أرض ، وبما تقدر عليه مناهدة . بينهم من ورث عن امه وابيه، باعها قيراطا قيراطا على المتعة والمسرة. لم يتزوجاحدهم بعد ، ولم ينهد لـه مطمع في اللهو والحياة البلهنية . يستعيضون بما تيسر من الحرام عن الحلال ، تحت ستار الليـل في الحظائر النائية ، وبيـن اعـــواد الذرة ، وخلف الاشجار . اليهـم تصبو العذراوات والمتزوجات ، لكـن الخيار في النهايـة لهم . يعرفون معهن حدود العرف ، فيؤثرون مـن دخلن دنيا ، ومن يعشن في ذمة رجل ، نوقيا للتهمة والفضيحة . اطفال كبار هم ، فيهم غالبا ذكاء لا ينكر ، واستعلاء على الشقاء والكدحوالعرق مقابل قروش لا تساوي وطأة التعب في المزارع من الصباح الىالغروب. يفتح لهم اصحاب الدكاكين حسابا بسيطا ، لا ضرر منه اذا لـم يدفع. ولهذه الجماعـة من الزعران ، اولاد الليـل ، يجلس الان ، ليكونـوا له عونا وقت الشدة ، فدمه من دمهم ، ولن يتخلفوا عنه، في مواجهـة المتاعب وقت النجدة . بينهم يجلس رشاد الفتى العايق الذي خرج من حبس قصير قبل اسابيع . ماضيه يشهد له ، مؤكدا خطورة نظرتـه الموارية الناعسة الفاترة . باع نصف فدانه الموروث عن امه . وبقـي كمـا خلقه المولى . اسلم حبيبته لقاتليهـا يومـا لقاء جنيهاتمعدودة. محمد بن مصطفى ، ابعدهم عن هذه الحياة ، واكثر الناس حبا لهم . ينشدهم فـي الليـل دائما ، ويسهـر معهم ، وينفق كل القليل الذي في جيبه ، واخطـر من ذلك يشير عليهم ويدبر . اكثرهم ظهورا بيـن الناس في النهار ، واسعدهم حظا في كسب القلوب . له يلجأ مـن ضاعت له بهيمة ، او سرقت منه بندقية ، فيعيدها اليه بمعونة رفـاق الليـل ، نظير مبلـغ مقدر ومعلوم . حافظ ، اكثرهم غرورا ،تكشف عن ذلك رقبته الطويلة المعوجة ، وطاقيته المائلة وعزوفه عن السـلام والتحية ولقاء الناس . لكـن الظروف حيـن تجمعه مع من يفهم، ومـن يدفع ، يصبح اكثر الخلق مرحا ، ينقلب بيد القدرة كابليـه الى سامرفكه ومهرج . قال لحسن :

ـ افتح جيبك ، لكي تحلو القعدة ...

تدافع الدم الى وجهه ، كان يقدر هذا الموقف ، لكنه لم يتوقع ان تأتي بهذه السرعة اخرج اوراقا من جيب صداره . عدها خلف الثوب باطراف اصابعه عارفا فئاتها من العشرة الى الخمسة ، واعطاها له . أخذها ونهض . هم بأن ينزل من الشكمة ، لكنه توقف والتفت اليه قائلا :

ـ سأحكي لك حكاية . لا تحسبها نكتة . أنا لا اهزل .

ـ قل .

ـ صعدت يوما النخلة العالية ، عند ساقية حوض « الجلابين » المهجورة .

صاح به حسن :

ـ مستحيل .

ـ لم ؟

ـ لان النخلة عالية جدا ، وناعمة .

ـ لكن هذا هو ما حدث .

ـ طيب . كمل .

ـ وخانتني يداي ، فسقطت في بئر الساقية .

ـ اسمع . هذا لم يحدث . والا كانت عليك الف رحمة .

ـ لكن هذا هو ما حدث . أنا لا أضحك .

ـ هيه . وبعد ذلك ؟

ـ وجدت نفسي في القاع ، وحولي سمك . قراميط وحيانك . جاهدت لاطفو على السطح . وتعلقت باحجار جدران البئر ، حتى خرجت منه . أتعرف ماذا وجدت ؟

ـ هيه .

ـ وجدت في فمي قرموطا ، وفي كل يد من يديّ قرموط . وقرموطا آخر لبد هنا .

واشار الى عجيزته . وضحك حسن حتى شبع . ظل يضحك سعيدا حتى بعد ان ذهب حافظ مبتعدا في الظلام .

قال حسن لرشاد :

ـ تعرف حكاية النادي ؟

ـ اعرفها .

ـ هل ستكون معي ؟

قال محتجا ومعاتبا :

ـ من يكون معك اذن ؟! لا تتوقف . نحن كلنا معك . مرني ان احمل بندقيتي في اي لحظة ، وسوف تجدني تحت امرك . أنا وكل ..

ـ لكنك تحت المراقبة الان .

ـ ولا يهمك . دعنا من هذا الحديث الان . واشرب شايك . تفضل .

وراحا ينصتان لاصوات الليل . وفكر حسن ان رشاد فهم عنه اكثر من اي انسان آخر .

ـ ٤ ـ

اخيرا قرر ان يذهب الى بيت خاله . اليوم الثالث له في البلدة ولم يذهب لزيارة احد من اقارب امه . لم يكن ذلك منه موقفا طيبا لكنه حسب ، منذ البداية ، ان خاله ، لكونه واحدا من مشايخ البلد ، ليس في صفه ، وانما هو في صف رجال الادارة في القرية ، بحكم مركزه الشرفي بينهم ، ومصالحه في العصابة التي تحكم . ارسل اليه اكثر من مرة في الصباح ، وفي المساء ،رسولا الى بيته ، ولسوء حظهما لم يكن موجودا في البيت ، كانتزوجة جده تخبره فقط بان رسولا قد جاء من طرف خاله اليه، ويلحظ في صوتها رنة فتور مؤلمة الا يذهب الى بيت خاله . وكان يعلم انها، زوجة جده ، قد تشاجرت ، منذ شهر مع خالته المطلقة ، والمقيمة مع خاله . وكان سبب شجارها ارض امه التي ورثتها عن ابيها، والتي نام عليها هذا الخال ، منذ سنوات . لم يكن شجارهما يعنيه كثيرا ، كما ان اسبابه لم تحمله على ان يتخذ موقفا ، لكنه كان، ايضا ، لا يريد ان يجرح مشاعرها .

جاءه بعد العصر ، وقبل ان يخرج من البيت ، ليتجول بين الناس درويش ابن خالته الثانية . كان رفيق صباه وطفولته . وكان صديقا قديما يأنس اليه ، ويحبه ويستخف دمه على قلبه .وعده ، قبل ان يفكر جيدا في ان يذهب معه . قدم له الشاي ، واخذ منه سيجارة. وفكر حسن انه كان ينبغي عليه ان يذهب الى بيت خاله منذ قدومه على الاقل في اليوم التالي لحضوره . فكر ان الحاج زكي هو اولا خاله ، قبل ان يكون شيخا للبلد . وان كلاهما يود الاخر ويكن له في داخله معزة خاصة ، وكان عليه ان يذهب اليه كقريب عزيز، اقرب اقربائه الى نفسه ، اقرب الى روحه من اي دعم له . وكان عليه على اي حال ، ان يفصل بين الغاية التي جاء من اجلها ، وبين مودة اقارب امه . فكر ان خاله هو اول من سيحميه عند الضرورة ، سيقف في وجه الكل لو احاط به خطر . وتذكر رفيقه الطالب في المعهد الديني ، الذي عاد الى قريته في الصيف الماضي، وحاول ان ينهض كفارس بمهمة كتلك التي جاء هو من اجلها في قريته ، فحاصره خاله ، مع ابنائه ، وقتلوه بالفئوس والباط ، دفاعا عن مصالحه الظالمة ، ومطامعه الشريرة . لا يذكر الان اسم هذا الطالب الذي حدثت من اجله ضجة حزينة في اروقة المعهد ، ولا يذكر تفاصيل الحادث واسبابه المعينة ، لكنه ما يزال يذكر ما حدث .فكر ان خاله ليس ابدا مثل ذلك الخال . مودته لاسرته ظاهرة ، كلما اتى بهداياه الى بيت ابيه وامه في المدينة . عيناه لا تحملان شرا لاحد . لا يبغي من حياته سوى مسرة الطعام والشراب والترفيه عن الجسد والروح. دون رجال الادارة جميعا هو المتعلم بينهم . يحمل شهادة الثقافة العامة ، ولولا ان اباه (جده) قد كف بصره ، ولم يكن يؤمن بجدوى التعليم ، وكان بحاجة اليه لرعاية ارضه ، مع ابنه الاخر، اخيه غير الشقيق ، لاتم تعليمه منذ زمن . لكن جده انتهز فرصة تمرد ابنه يوما على ناظر المدرسة بميت غمر وضربه اياه ، لانه رفض ان يسبه احد ، واخرجه من المدرسة ، وابقاه الى جواره .لا يمكن ان يكون مثل هذا الخال الذي يعرف التمرد من اجل الكرامة، فاتلا ، يسلمه الى عدوه . خاله انشط واعقل رجال الادارة . يحترمونه جميعا ويحبونه ، وبخاصة ، لان الطيبة تتفجر من ملامحه، التركية ، ولانه يعرف متى يتكلم ، ومتى يسكت . يعرف كيف يحسب حسابات الواقع الراهن في القرية ، وكيف يظل على مودة بأهل الفقر والغنى على السواء ، وكيف يستفيد لنفسه من وسط الكل ، دون ان يدينه احد . ومن اجل وجاهة مركزه ، وبخاصة ان اسرته ضعيفة العدد في القرية ، لا تتجاوز بيوتها اربعة بيوت ، يضحي بالكثير . من بيته يولم الولائم ، ويقدم القهوة والشاي ، لزوار الدوار الغرباء من الضباط والمهندسين والاطباء . من بيته لا من بيت العمدة ، او نائبه ، او اي من مشايخ البلد الاخرين . ربما لانه اكثرهم ارضا بعد العمدة ، وربما لانه اكثرهم حرصا على مركزه ، واقلهم تقديرا لما يملكه من ارض وخير . وهو بعد افل استفادة من الفلاحين ، ومن التموين ، ومن القرض بالربا ، وتجارة السوق السوداء في السماد والبذور . لامه حسن ، عندما جاءهم للزيارة في بيت الاهل بالمدينة.

ضحك ، ولم يغضب ، ولم يدافع ، بل لم يجب .وقال له حسن:

ـ اولادك يكبرون . لماذا لا ترحل الى المدينة ، هنا ، وتبني لك بيتا ، وتعلم اولادك كما ينبغي . بوسعك ان تفتح اسفل البيت متجرا .

ـ والارض ؟

ـ لست فلاحا حقيقيا . أنت تؤجرها ، او تؤجر من يزرعها . ينهبها منك من يعمل فيها . تتضاعف نفقاتك بسبب ذلك ، وبسبب المشيخة . انت تبيع فعلا كل عام نصف فدان منها ، في سبيل الوجاهة بين رجال الادارة . في الوقت الذي يشتري فيه العمدة ، ومشايخ البلد

الاخرون ، ارضا ، كل عام . لستَ لصا مثلهم . اولادك احق بحياتك ، وارضك ، وخيرك . لماذا لا تفكر في مستقبلهم .

قال له كلاما كثيرا اخر ، كلاما متقطعا . لا يذكر بالتحديد الطرف الاخر لحواره ردا عليه ، لكنه يذكر ما قاله له في ذلك اليوم :

ـ في المدينة لن يكون لي سعر . في البلد انا سلطان .

تذكر المثل : الاعرج في حارة المكسحين سلطان . ضحك في سره ولم يقل له ما دار بخاطره . فكر عندئذ انه يفكر في نفسه فقط ، ويعيش لها ، ويستمتع بحياته . من اجلها يضحي ، لكنه ليس على استعداد للتضحية بمباهجه الروحية ، من اجل اي احد اخر ، حتى من اجل ابنائه . قال له حسن :

ـ واولادك ؟

ـ بتعلمون . كما تعلمت انا ، وكما يتعلم ابناء البلد الاخرون . لا تقس حال الكل على حالكم انتم . ابوك مدرس . اسمع . دعك من هذا الموضوع .

في الطريق الى بيت الخال ، كان البعض من اهالي الاحياء الاخرى ، ابناء عائلات كاعوه ، وخضير ، ورجب ، ومكنس ، جلوسا على المصاطب . كانوا ينهضون لتحيته وهو يرمي عليهم السلام . كان يتوقف احيانا ليسلم على صديق قديم لطفولته ، او عزيز عليه من الفلاحين. وسأله احدهم وهو يمضي مبتعدا :

ـ متى ستفتحون النادي ان شاء الله .

اجاب دون ان يلتفت :

ـ قريبا ان شاء الله .

واضاف وهو يتوقف لحظة :

ـ البركة فيكم .

في صوت سائله ، ولحظة سؤاله ، بعد انصرافه عن الجالسين ، سخرية لا تخفى ، تحد ومراهنة . اتهام له بانه لا يعرف واقع هذه القرية ، تصريح غير مباشر بانه ليس له ثمة من أمل . تحداه في الطريق واحد من طلبة عائلة العمدة ، يعرف انه منهم بملامحه ، لكنه لا يذكر ابن من هو من عائلة العمدة ، ولا يذكر اسمه . قال له :

ـ ابق قابلني .

وادار له ظهره محقرا من شانه . وصعدت دماء غضب حبيس الى وجه حسن . لم يتوقف للرد عليه ، او التشاجر معه . سأل فقط درويش عنه قال له درويش :

ـ دعك منه . ابن الحاج سليمان . اسمه عبده .

سأله حسن على الفور :

ـ وانت . ما رأيك في النادي ؟

أجابه درويش مخلصا :

ـ انا مع النادي . كل شيء في صالح البلد انا معه . لكن المهم الطريق اليه . اسمع الامر كله في يد خالك . خالك هو الكل في الكل بين رجال الادارة .

ـ تعتقد انه سيوافق .

ـ المهم هو الطريقة .

وصمتا . ودخلا بيت الخال . صعدا درج الشرفة ، وولجا باب المضافة . ودق قلب حسن . على هذه الاريكة على يمينه ، كان يجلس جده الكفيف ، المفتوح العينين أبدا ، صامتا أبدا ، الا حين يزعق لامر ما على أهل البيت ، او حين يسقط شعاع العابر امامه ، ذلك الشعاع الغامض ، على انسان عينيه ، فيصيح بالمار مهما حاذر في خطوه :

ـ من أنت ؟

*

كان درويش قد عاد الى بيته ، على وعد بأن يلتقيا قبل سفره . وعند الغروب وضعوا امامه على طقطوقة واسعة عالية الدائرة ورقا زجاجيا ، مليئا حتى الحافة بالماء والسكر والليمون . كان ما يزال يدور حول نفسه ، تتصاعد فيه وتهبط خيوط من قش التبن وذرات من غبار لم تتحلل . هفت نفسه الى شربه ، لكن منظر الفش المعلق في الماء ، على مستويات مختلفة من الدورق اصابه بالقرف . ذاقه ليبل ربقه بقطرات منه ، ثم اعاد الدورق الى مكانه . جاءه خاله . سأله :

ـ لم لا تشرب ؟

أجابه بحرج :

ـ لا رغبة لي .

من نظرة الى الدورق ، عرف خاله السبب . رفعه الى فمه من يده ، وشربه عن اخره في نفس واحد ، بمائه وفشه وغباره . وتكرع ضاحكا دون صوت . ونظر اليه دون ان يقول كلمة . وعاد الى داخل البيت . فارغ هو ، يملأ المعطف التيلي الابيض . نموذج حي لرجل الاعيان المتنور . استسلم لحياة هذه البلدة بما فيها من خير وشر ، بما فيها من ماء وسكر وليمون وفش وغبار . سوى طربوشه على رأسه ، وعبر الباب الاخر الى داخل البيت . وجاءته ابنة الخال ، معصوبة الرأس ، بصينية العشاء الصغيرة التي اسود ما كان عليها من فصدير. وضعتها امامه . صغيرة هي لم تزل . لاحت امها على الباب الداخلي . صاحت بها :

ـ العصبة عند عريسك يا بنت ؟!

وجرت من امامه ضاحكة خجلى . ورفع الغطيان عن الاطباق : صلصة ، وبطاطس ، وفتة ، وأرز ، وملح ، ودجاجة محمرة لتوها . كان حسن جائعا . لكنه اخذ يأكل وحيدا على مهل . يشعر بضيق في داخله ، لانه يأكل وحده ، على الاريكة المقابلة ، لاريكة جده لامه الذي رحل ، ليقيم في المقابر التي كان بها اول امس ، الى الابد . فكر ان خاله لم يقل له شيئا ، لم يفاتحه عن النادي بشيء . لا شيء اكثر من التحية . لم يعاتبه على أنه لم يأت اليه من قبل . هو بالمقابل لم يجد تشجيعا ولا مناسبة ، ليقول لخاله شيئا اكثر من التحية . حدث نفسه: هذا البرود ، والفتور ، وعمل الواجب ، ماذا يمكن ان يكون وراءه . تذكر المثل : لاقيني ، ولا تغديني . أحس بغصة . عزف عن الطعام على رغبته فيه التي لم تزل ، ولم يحصل منه على لقيمات . حدثه قلبه بانه لا ينبغي ان يملأ بطنه ، ان تلك الزيارة لن تمر هادئة ، لن تظل فاترة ، كما تبدو .سيكون بحاجة الى كل عقله ،شرب كوب ماء ،واشعل سيجارة تركها له درويش ، ليدخنها بعد العشاء .

رنا الى اريكة الجد الراحل ، خالية هي على غير العادة . ليست فوقها الوسائد المعتادة . النافذة الصغيرة على يسارها ، المطلة على الشرفة مغلقة . تبدو مغلقة منذ رحل عن البيت . تألم في مرضه طويلا ، ربما بسبب جلسته الدائمة على هذه الاريكة ، وحيدا ، سجينا ، عاما بعد عام ، ثم ذهب . فقد بصره يوما وهو يجري بالعصا فوق سطح البيت ، وراء أمه وخاله هذا ، كانا صغيرين . سقط في الليل فوق سلك المنور ، انقطع تحت ثقله وسمنته فهوى الى اسفل . فقد بصره في تلك السقطة . ما تزال امه تذكر ذلك الحادث بمرارة ، شاعرة ابدا بالذنب ، لا تحتمل لهذا السبب اية شقاوة من اخوته الصغار . نادته الخالة من الداخل ، وجاءت ابنة الخال ، ورفعت الصينية من امامه . سألته : لماذا لم يأكل الدجاجة ؟ ابتسم لها ولم يجبها بكلمة . نهض وراءها الى داخل البيت .

كانت الخالة تجلس مع مسبحتها على أريكة ، بغرفة نوم جدته التي رحلت ايضا عن الدنيا . صغيرة هي خالته لم تزل ، لكنها قد شاخت روحا ونفسا . لذلك تصلي الان ، وتعيش حزينة بلا ولد . لانها لم تنجب . طلقت بعد عشر سنوات ، عامرة بالحب لزوجها ، والامل في الولد . سرير الجدة ما يزال قائما بأعمدته الحديدية ، وعساكره الرفيعة السوداء ، عار هو الان بلا ناموسية ، منذ ان رحل صاحباه الاولان . فيه تنام الخالة الان وحيدة . على هذه الاريكة سمع

حكايات الف ليلة وليلة من جدته : عبد الله البري ، وعبد الله البحري والسندباد ، ويوسف المسحور ، ليلة بعد ليلة ، حتى ينام ، كلما جاءت امه به غاضبة من أبيه . تركية خالصة كانت . في الاسكندرية عاشت طفولتها ، في رعاية عمها . تعرف القراءة والكتابة التي لم تعرفها امه . الى الكتاب كانت تذهب . كل يوم فوق تل رملي، عند مكان معين ، كانت تنظر الى مشط حذائها الايمن ، فترى فوقه قطعة فضية بعشرة قروش . كان حسن يدهش لحكايتها تلك . لكنها كانت تؤكدها بالقسم . حدثت عمها يوما عن حكايتها تلك ، مع القطعة الفضية ذات القروش العشرة ، فلامها لانها تكلمت ، وعابها لانها صرحت . اخبرها انها لن تجد هذه القروش بعد الان ، على مشط الحذاء . أكدت أنها بالفعل ، بعد ذلك ، لم تر لهذه القروش اثرا . وراحت الخالة ، تسأله عن احوال الاهل في المدينة . وجاءت زوجة الخال ، ومعها ابنتها ابنة الاعوام التسعة ، تحمل مصباحا ، متزينة مجلوة .

ـ ٥ ـ

حدث ذلك الشيء المجهول ، الذي كان بتوقعه ، ولا يعرفه . احس بحركة في المندرة المجاورة ، رأى الضوء عبر ثقب الباب الداخلي المغلق ساطعا . وذهبت زوجة الخال والابنة ، وسمع أصواتا مختلفة لحركات اقدام ، وحديثا مبهما متقطع لناس لا يذكر اصواتهم . جاء الخال وناداه ليجلس مع الضيوف . ذهب معه ، عبر ساحة البيت والمضافة الى المندرة . احس بما كان يدبر في سكون حين رأى الجلوس على الارائك البلدية الوثيرة . كل رجال الادارة بانتظاره وحده . كلهم عدا اثنين : العمدة ، وقريبه نائب العمدة . اكثر عائلات القرية هنا الان ، ممثلة برجل منها ، هو رجلها بين رجال الادارة . كلهم مشايخ بلد الان. يعرفهم واحدا واحدا ، ولم يكن اكثرهم قبل عشر سنوات شيخا للبلد ، عن عائلته .. نهضوا وسلموا بلطف عليه : افسحوا له اكثر من مكان ليجلس بينهم . عزف عن الجلوس الى جوار احدهم . ذهب الى كرسي خيزران منفرد وجلس ، دون ان يشكر او يعتذر . جاء خاله ، وحاول ان ينهضه ليجلس بجواره ، فقال له بجفاف :

ـ لا . اذهب واجلس معهم . انت منهم .

قال الشيخ حسنين المعمم على ثوب بلدي من التيل :

ـ ياه . انت حامي جدا .

لم يقل شيئا . لاذ بصمت جياش بالتوتر والغضب . قال الشيخ احمد المطربش على ثوب بلدي من الكشمير :

ـ مثل أبيه في زمانه .

ضحك الكل . فازداد حسن قوة داخلية في مواجهتهم ، برغم احمرار وجهه ، وتقلص فكيه .

قال الشيخ موسى المعمم ايضا على ثوب بلدي من التيل :

ـ تغيب غيبتك ، واول ما تشطح تنطح .

فكر انهم يبدأون بالهجوم ، ليكسروا مجاديفه ، ليخيفوه ، ويفلوا من عزيمته . قرر ان يشن عليهم حملة هجوم شخصية ، يعريهم بها امام انفسهم ، لكي يبدأوا حوارهم معه من نقطة اخرى . قال للشيخ موسى:

ـ منذ عشر سنوات . لم يكن لك مكان بين أعيان البلدة . في عشر سنوات يا شيخ موسى ، ملكت عشرة افدنة من لا شيء . وصرت بها شيخا من مشايخ البلد ، وجلست مع الاكابر . لا تغضب . أنت بدأت . اقول لك فقط كيف صرت على ما أنت عليه الان .

احمر وجه الشيخ موسى ، ثم اصفر . قال الشيخ مكنس الذي يضع على رأسه لبدة كما كان ابدا :

ـ عيب يابني . من التجارة . وربنا بارك له . ربنا بوعدك .

ابتسم بقسوة ، وقال بحدة :

ـ صحيح . أي تجارة ؟ الربا ؟ ام التموين المسروق من الاهالي ؟ ام بيع السماد والذرة بسعر السوق السوداء ؟

نهض الشيخ يوسف بطاقيته المزينة ، وقال :

ـ لا . شيء لا يحتمل . هذه زيادة عن الحدود والاصول .

لكنه ما لبث ان جلس . واصل حسن الضرب ، مهددا ، مشيرا اليهم واحدا واحدا :

ـ وأنت ، وأنت ، وأنت . وأنت ايضا يا خالي .

ضحكوا . قال الشيخ حسنين باستنكار :

ـ وخالك ؟ افتش لنا خالك افتش !

وضحكوا . طأطأ خاله رأسه محرجا ، وقد اختفى الدم في وجهه. فقال معاتبا :

ـ جئت بي من بيتي ، لاجلس مع هؤلاء . وانت . الرجل المتعلم ، تعمل معهم . تشاركهم في استغلالهم للناس . أنت الوحيد من بينهم الذي تخسر . كل الولائم من بيتك ، والقهوة والشاي . من منهم يفعل مثل ما تفعل ؟

لاذوا جميعا بصمت حرج . رفع خاله رأسه . نظر اليه معجبا وممتنا ، فخورا ومحذرا . قال :

ـ كل شيء بالهدوء يا حسن .

ونهض قائلا :

ـ نشرب القهوة اولا . ثم نتفاهم بهدوء .

وذهب خاله ليطلب القهوة . وحدها ستأتي القهوة . لكنه كان يريد ان يوقف الان ما يحدث ، وبالطريقة التي يحدث بها . وأتاح له خروجه ، والصمت الذي ساد المجلس، الا من نقرة بالعصا على الارض، وعض للشفاه ، ونظر الى السقف ، وعبث بملاءات الوسائد ، ان يتأمل الموقف الذي لا يحسد عليه الان ، وان يفكر في الخطوة التالية : ماذا يريد ؟ وماذا يريدون ؟ وكيف ؟. عاد خاله الى المجلس فأحس بالراحة لقدومه ، خشي ان يبدأ حديث ما في غيابه ، ان يجرحه احدهم بكلمة كان يمكن الا يقولها مراعاة لوجود الخال الذي لا شك ، مهما كان موقفه معهم ، سيحرص على شعور ابن أخته . جلس الخال ، وربت على فخذ حسن ، وهمس له قائلا :

ـ لا تنفعل . كل شيء سيتم بخير .

أجابه بصوت مسموع وحاد :

ـ هم الذين بدأوا بهذه الطريقة .

لم يقل احدهم شيئا . وجاءت القهوة . مر بها درويش على الحضور ، وأخذ قهوته ومص منها رشفة . احس بطعمها مرا في فمه . انتظر حتى بردت وشربها في جرعة واحدة وشت بتوتره . قال الشيخ حسنين مشيرا الى ملابسه الريفية :

ـ لكن . لماذا لبست هذه الملابس ؟ بدلتك أفضل !

نظر الى خاله من جديد ، قائلا :

ـ هيه . بدأنا . أنا قلت شيئا ؟

قال الشيخ حسنين :

ـ لا تؤاخذني . اريد فقط أن افتح الحديث معك .

قال حسن :

ـ شيخ حسنين . أنا احترمك منذ زمن . ابن أخيك زميلي في المعهد . ولا أريد ان يكون بيننا خطأ . لا عيب عليك في نظر الناس ، سوى انك شريك للادارة بالصمت ، بمجرد وجودك بينهم شيخا للبلد .

أخذ الشيخ حسنين يفكر بمشقة في معنى ما يقوله حسن . بدا له حسن أكبر منه عقلا . آثر الهدوء ، فراح ينكت أعواد الحصير المفروش على الارض بطرف عصاه ، قال الخال :

ـ تكلم يا شيخ موسى .

قال الشيخ موسى لحسن ، دون ان ينظر اليه :

ـ اسمع يا شيخ حسن . المسألة وما فيها ان البلد لا تريد هذا النادي .

قال حسن على الفور :

ـ البلد ؟ من هي البلد في رأيك ؟
نظر حسن اليه في تلك اللحظة قائلا :
ـ الناس .
ـ لكن الناس يوافقونني . عائلتك نفسها تؤيدني . ثم ان هـذا النادي يخص طلبة البلد ، لا الاهالي . واذا شئت نعمل استفتاء على النادي ونشوف النتيجة . اذا قالوا : لا . سأسافر فـي الصباح . ما رأيك ؟
ـ لا . الكلام معك صعب . أنت تلعب بالكلام .
ـ أنا ؟.. المسألة كما افهمها يا أهل الخير ، ان الادارة . رجال الادارة ، أنتم ، لا تريدون هذا النادي . لماذا ؟ هذا ما اريد ان اعرفه منكم ؟ لماذا لا تريدون ان يكون لبلدنا ناد ؟ كل البلاد حولكم فيها نـواد ، الا بلدنا . لم ؟
قال الشيخ حسنين :
ـ عداك العيب يا شيخ حسن . وضعت يدك عـلى النقطة الاساسية : لماذا لا نريد النادي ؟ قل له يا حاج .
قال الخال :
ـ هو امامكم . قولوا له ما تشاءون . واسمعوا منه .
نظر حسن الى خاله شاكرا له موقفه . أحس انه على الاقل يأخذ موقف الحياد ، اذا لم يكن معه . فكر ان المساومة ستبدأ .
قال الشيخ احمد :
ـ الحكاية وما فيها ان هذا النادي سيجلب لنا المتاعب .
ـ كيف ؟
ـ عليك نور . كيف ؟ أولا : نصف طلبة البلد لا يريد النادي .
ـ ليسوا النصف . طلبة عائلة العمدة فقط . ثم ، هم احرار ، لا يريدون النادي ، لا يشتركون فيه ، ولا يذهبـون اليه . الآخرون يريدونه . يفتحون لهم ناديا خاصا اذا شاءوا . زيادة خير على أي حال.
ـ ياه . هذه فلسفة لسنا أهلا لها . كلمنا على قدر عقولنا .
ـ العفو . كلامي بسيط ، وواضح . ثانيا :
ـ ثانيا يا شيخ حسن . أقـول لك يا شيخ حسن ، ولا ثانيا ولا ثالثا . هذا النادي سيجعل الناس في جانب ، والادارة في جانب .
ـ وضح .
ـ أقصد : ان البلد ستتكتل وراء الطلبة .
ـ لكنه نادي ثقافي رياضي . وليس ناديا سياسيا .
ـ مفهوم . مفهوم . لكن ، ما سيحدث !
قال الشيخ حسنين :
ـ ما سيحدث يا شيخ حسن ، بعد يوم ، بعد شهر ، بعد سنة ..
قال الشيخ يوسف :
ـ بعد اسبوع فقط ..
قال الشيخ حسنين :
ـ ستنقسم البلد على نفسها يا ابني .
قال حسن :
ـ كيف ؟ أريد ان أفهم .
كان يعرف ما سوف يحدث . وكان يريده ان يحدث ، لكنه كان يريد أن يكشفوا كل أوراقهم . قال الشيخ احمد :
ـ المسألة وما فيها باختصار ، ان النادي سيجمع الطلبة .
أضاف الشيخ يوسف :
ـ والاهالي سيتجمعون على الطلبة .
قال الشيخ حسنين :
ـ مرة للفرجة على اللعب .
قال الشيخ أحمد :
ـ ومرة للاذية .
فهم حسن ما يقصدونه ، لكنه سأل بتباله :
ـ كيف ؟
قال الشيخ حسنين :
ـ يا حسن يا ابني ، انت شاطر ، وسيد العارفين .
ـ لا أفهم .
ـ سأقول لك .
تدخل خاله عندئذ ، وقال باختصار :
ـ انتظر يا شيخ حسنين . سأريحكم وأريحه . اجتماع الاهـالي على الطلبة سيجعل الطلبة يتبنون مطالب الاهالي .
قال حسن مقاطعا :
ـ اذن للاهالي مطالب . أجيبوها .
قال الخال :
ـ ليس هناك أحد ليس له مطـالب . حتى نحن.لنا مطالب . أي انسان له دائما مطالب ، حتى المـوت . ولا يملأ عيـن ابن آدم الا التراب .
ـ اذن . مطالب الشعب ، الناس ، الاهالي . هي الاحق . قبـل مطالب أي أحد . المصلحة العامة أولا .
صاح الشيخ يوسف :
ـ وهكذا ندخل في السياسة .
قال الشيخ حسنين :
ـ والادارة في بلدنا سياسة .
قال الخال :
ـ والدولة تحرم اشتغال الطلبة والموظفين بالسياسـة . وبلدنـا من الدولة ، وادارتها من ادارة الدولة . مفهوم .
قال حسن :
ـ مفهوم . لكن هذا ناد ثقافي .
قال الخال :
ـ سأريحك . هذه الايام ترسل فينا شكـاوى الى الحكومة . خمسمائة شكوى كل سنة . وبعد النـادي ستصير الشكاوى خمسة آلاف . يعني نصف البلد تشكو . يعني سقوط الادارة في بلدنا فـي نظر الحكومة .
قال حسن :
ـ اذن هناك أخطاء في الادارة . وحقوق مسلوبة للناس ينبغي أن ترد اليهم .
ـ ليست هناك ادارة بلا أخطاء . ودائما هناك أحد مظلوم .
قال حسن :
ـ الخطأ ينبغي اصلاحه . والمظلوم ينبغي انصافه . اذا لم تفعل ادارتكم ذلك ، فمن حق الناس أن يلجأوا الى من هم فوقكم .
قال الخال :
ـ لكن هذا يا بني ليس عدلا . من فوقنا يخطئون مثلنا . نحـن نفعل مثلهم . كثيرون هم المظلومـون ، منا ، ومن غيرنا . ومع ذلك لا ينصف أحد منهم .
فكر حسن مليا . فكر ان خاله يقول الحقيقة ، وان النقاش معـه ليس هينا . لذلك يجد التبرير للمشاركـة في الجريمة ، والصمت عليها . يقيس واقعه الصغير بالواقع الكبير كله . بحث عن مخرج ما ، تلمسه في ثنايا ما دار من حديث . وجـده فجأة ، خاطرا غامضا ، فقذف به ، علّه أن يسلمه الى نتيجة ذات أهمية . قال :
ـ النادي الآن غير موجود . أليس كذلك ؟ هل منع هذا وجـود الشكاوى من الادارة ، ووجود المطالبات للوزارات من الاهالي ؟
ـ لكنها ستزيد . قلت لك ستزيد .
قال خاله . فقال حسن :
ـ انها تزيد فعلا بناد ، وبدون وجود ناد .
قال الشيخ حسنين :

ـ اسمح لي . أنا غبي . لا أفهم . مخي على قدي .
قال حسن :
ـ سأوضح لكم ما في رأسي . زمان . أيام العمدة السـابق . هل كانت هناك خمسمائة شكوى ؟
قال الشيخ يوسف :
ـ زمان . الله يرحم زمانه . لم تكن هناك سوى شكوى واحدة ، دائمة ، من أبيك .
ضحكوا . وقال الشيخ موسى :
ـ والآن . الشكوى من ابنه .
ضحكوا . قال حسن :
ـ دعونا من هذا الكلام الآن . أريد أن أكمل وجهة نظري . قبل سنوات قليلة ، كم شكوى حدثت ؟ زاد عدد الشكاوى اكثر من قبل . لكنها كانت أقل من عدد الشكاوى الآن .
قال الشيخ يوسف :
ـ قبل وجود النادي . وستزيد بعد النادي . وهذه سياسة . يعني مسائل عليا في نظر الحكومة . ونحن حكومة هذا البلد .
قال حسن :
ـ يا أهل الخير . ما أريد أن أقوله ، ان سبب الشكاوى وزيادتها ، ليس هو النادي ، وانما هو زيادة التنور بين الناس ، بين الاهالي . زاد التعليم بين أولادهم . وزادت المطالب .
قال الشيخ يوسف :
ـ الله يرحمه .
ـ من ؟
ـ من قال : ان حكم الشعب الجاهل ، أسهـل من حكم الشعب المتعـلم .
قال الخال :
ـ هذا كلام الخديوي عباس .
قال الشيخ يوسف :
ـ الله برحمه وبحسن اليه . لو كانت الحكومة سمعت كلامه .
قال الخال :
ـ نحن نبتعد يا جماعة عن الموضوع .
قال حسن :
ـ ثم .. الطلبة فعلا بين الاهالي ، بناد ، أو بدون ناد . ليست هناك عائلة الا وفيها الآن طلبة ، يكتبون لاهاليهم الشكاوى . فما الذي سيزيده النادي في الموضوع ؟
في اعماقه ابتهج ، وظهرت آثار ابتهاجه على وجهه . هذه هي النتيجة التي كان يريد الوصول اليها . لم يكن يعرفها بوضوح ، لكنها جاءت وحدها ، كالفجر ، اكتشافا مذهلا . صمت الكل ، وطال الصمت . ثم قال الخال :
ـ لكن التجمع يفتح المخبوء ، ويكشف المستور .
صاح الشيخ موسى :
ـ عليك نور . هيه . ماذا تقول يا حسن ؟
قال الشيخ يوسف :
ـ يا حسن ، يا ابني . أنت منا ، أقرب الينا . أطلب أي واحد منا ، تجـده تحت أمرك . عائلتك مسودة في البلد ، دون سائر العائلات .
قال حسن :
ـ أنا لا أتحدث عن عائلتي ، ولا أريد لها شيئا لا يأخذه الناس . عائلتي تأخذ حقها بذراعها ، وأنتم تعرفون ذلك .
ضحك الشيخ أحمد وحده ، وهو يقول :
ـ هذا واضح أمامنا . أنت واحد منهم .
ضحكوا . قال حسن :
ـ ليس هذا قصدي .
قال الشيخ يوسف ، وقد بدا له انه أمسك به فجأة ، من مخنقه :
ـ تعال هنا . أنت تقيم الآن بعيدا عن البلد .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ أقصد ، أن تدع حال البلد ، لاهل البلد . أنت لا تقيم فيها . كم مرة وضعت قدمك فيها ، منذ سنوات كثيرة ؟
تدخل الخال ، لينقذ الموقف . سأل حسن :
ـ وأين تريد أن يكون مكان النادي ؟
قال حسن :
ـ في بيتنا .
ـ هل يعلم أبوك ؟
ـ طبعا .
ـ يعني وافق .
قال الشيخ موسى :
ـ لكن ، هذه فتنة في البلد . كيف يوافق أبوك عليها ؟
قال حسن :
ـ ستشاركنا ؟ كل واحد حر في بيته .
قال الشيخ حسنين :
ـ واذا كانت حريتك هذه ، ستسبب لنا الاذى .
قال حسن :
ـ قلت لكم . ارفعوا الاذى عن الناس .
قال الشيخ يوسف :
ـ يا ابني ، دع الملك ينظمه صاحبه . الله سبحانه يقول : « رفعنا بعضكم فوق بعض درجات » .
ابتسم حسن وقال :
ـ وهو ايضا يقول : « والله لا يحب الظالمين » . والرسول ايضا يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده » . اسمع يا شيخ يوسف : تذكر انني أحفظ القرآن . واعرف انني أعرف ، وينبغي لك أن تعرف هذا ، ان الدين لا يرضى بما هو حادث الآن . الدين يوافق على النـادي .
صاح الشيخ احمد ضاحكا :
ـ ياه . أنى لها بفتوى .
قال الشيخ يوسف :
ـ وفي أي آية أو حديث يا مولانا جاءت سيرة النادي ؟
ضحكوا . وأضاف الشيخ يوسف :
ـ أندية المسلمين في الدين هي مساجدهم .
هزوا رؤوسهم بسعادة قائلين :
ـ أي نعم . أي والله . تجلى يا شيخ يوسف تجلى .
فكر حسن انه لا جدوى من مناقشتهم في روح الدين ، ولا في شرح فكرة النادي كمصلحة عامة في ضوء مبدأ المصالح المرسلة . فكر ان هذا المبدأ نفسه ، موضوع فقهيا في يد ولاة الامر ، وليس في يده ، ولا في يد الناس . هو وهم لا حول لهم ولا طول .
أحس خاله بمحنته . قال ضاربا على الحديد قبل أن يبرد :
ـ العمدة آخذ على خاطره منك .
نظر حسن اليه مستفهما . فقال الخال برقة :
ـ ما بينه وبين أبيك عامر الآن . وهو كبير البلد مهما كان الامر . وكان ينبغي أن تأتي لزيارته . وكان يمكن أن تعرض عليه فكرة النادي ، وتتفاهم معه . هو على أي حال رجل منور . اخوته كلهم كما تعرف متعلمون ، وفي مراكز كبيرة بالبلد . ولولا العمودية هذه ، ومصلحة البلد ، لما ضحى بتعليمه . وعلى أي حال يمكنك أن تذهب معي اليه ، ونتفاهم .
قال حسن في الحال :
ـ لا .
ـ لم ؟

ـ قبل الآن . قبل الحديث الذي دار في هذا المجلس ، والموقف الذي رأيته منكم ، وأنتم رجاله وأعوانه ، كان يمكن ان اذهب اليه . الآن . لا .

ـ طيب . قل لي . لماذا ؟ انه يدعوك للغداء معه غدا . وشرب القهوة معه اليوم .

ـ ذهابي اليه لن يقدم او يؤخر . انني ارى رفضكم .

قال الخال :

ـ يا حسن . من قال لك ، اننا رفضنا ؟

ـ اذن . أنا لا أفهم .

ـ قولوا لي اذن ، انكم موافقون .

قال الشيخ يوسف :

ـ أنا لا أوافق . هذا عمل سيىء .

قال الخال :

ـ واذا قلنا لك اننا موافقون بشروط . هل تقبل ؟

ـ لست أنا الذي أقبل . الموقف كله في يد طلاب البلد .

ـ أنت تتحدث باسمهم .

ـ يتحدث باسمهم ؟ انه جرؤ على ما لم يجرؤ عليه أحد منهم .

قال الشيخ يوسف ذلك . فأجابه حسن ساخرا :

ـ لست وحدي . كلهم مثلي . البنداري مثلا . ماذا فعل ؟

قال الشيخ حسنين :

ـ وماذا فعلنا به ؟ أين هو الآن ؟

صاح حسن :

ـ هل تهددني ؟ اسمع يا شيخ حسنين . اسمعوا جميعا . فعلتم به ذلك ، لان الكل لم يكن معه .

ـ والكل معك الآن ؟

قالها الشيخ احمد ساخرا . فقال حسن :

ـ نعم .

ـ أنت واهم .

ـ لست واهما . المسالة تكبر ، تكبر دائما . ثم .. لم تكن له عائلتي . أقول لكم ذلك بصراحة .

قال الشيخ موسى ضاحكا :

ـ ولم يكن له خالك . نحن نجلس معك الآن لاجل خاطره .

قال الشيخ يوسف :

ـ أي والله . ومن أجل خاطر أبيه . الرجل الطيب . ولولا ذلك لكان لنا موقف آخر معك .

قال حسن :

ـ اشكركم على أي حال . لكنني لا أخافكم . يمكنني أن أفتح النادي بواسطة وزارة الشؤون الاجتماعية ، وهيئة التحرير . والمسألة بسيطة ، ولن تستطيعوا لها عندئذ دفعا . اطلاقا .

صمتوا . ثم قال الشيخ يوسف :

ـ واذا كتبنا تقريرا ان ذلك سيسبب فتنة في البلد ؟

أجابه حسن :

ـ واذا كتبنا طلبا للحكومة ، ووقع عليه أكثر الاهالي ، وأكثر طلبة البلد . ماذا ستفعلون عندئذ ؟

قال الخال فخورا به :

ـ انا قلت لكم . انه كأبيه . ليس سهلا .

قال الشيخ أحمد :

ـ هذا واضح . وضع الحديد في يدي أبيه ، ثم خرج بريئا .

قال الخال :

ـ هيه . ماذا قلت ؟ هل توافق على شروطنا ؟

ـ أية شروط ؟

ـ نحن نفتح النادي . هل تمانع ؟

ـ أكمل بقية الشروط أولا .

ـ وأنا رئيس النادي . رئيس شرفي فقط .

ـ ثم .

ـ ونمسك بأمانة الصندوق . صابر أفندي ...

قال حسن ضاحكا :

ـ و .. و .. و .. يعني باختصار . لا يأتي اليكم أحد من الطلبة ، ولا من الاهالي . يصبح النادي لافتة . مجرد مظهر ، وشكل . وماذا بداخله ، لا شيء . يعني دوارا آخر للادارة . ومكانا لمراقبة الكل . مصيدة للطلبة وللاهالي . أنت رئيس النادي . وصابر افندي ، سكرتير العمدة ، أمين الصندوق . وكذلك الفراش ، وأمين المكتبة ، والادوات الرياضية ، وطبعا .. السميعة .. الذين ينصتون لما يدور من حديث . لا . يفتح الله . أنا شخصيا لا أوافق .

قال الشيخ حسنين :

ـ أنت ، أنت .. كل شيء أنت .. وهم ؟

قال حسن بلهجة واثقة ، وقلب غير واثق من شيء :

ـ اسألوهم . هذا ناديهم . أنا كما قلتم غريب . واسطة خير .

قال الشيخ أحمد :

ـ الواسطة يوفق بين الطرفين . ولا يفرق بينهم . أنت تأخذ جانبا واحدا .

قال الشيخ يوسف :

ـ انه المتحدث الرسمي في الامم المتحدة .

لم يضحك أحد لما قاله . بدت عبارته المفاجئة غير مفهومة .

قال الخال :

ـ والعمل ؟

قال حسن :

ـ يفعل الله ما يشاء .

ـ وانت ؟

ـ افعل ما يشاء الله .

نهض الشيخ يوسف . قال منسحبا :

ـ يا جماعة ، لا فائدة . لا يريد خيرا . وستكون فتنة . وربنا يسلم . سلام عليكم .

وخرج الشيخ يوسف ، وتبعه الآخرون . لم يصافحه أحد . ولم ينهض لذلك لاحدهم . وحين ذهبوا جميعا بعمائمهم وأكراشهم ، وجلودهم اللزجة ، نهض خاله قائلا :

ـ أنا فعلت ما عليّ يا حسن . على اي حال البيت بيتك .

وغادر الخال الحجرة ، ليلحق بهم . وفكر حسن ، انهم سيذهبون الآن الى دوار العمدة . سيشرعون في التصرف فعلا ، وهو جالس الآن وحده . لم يكشفوا له عن خطوتهم التالية . فكر انهم سيدبرون أمرا ما لايقاف كل شيء . فكر ان خاله سيرسل الى أبيه . ربما يفعل ذلك الليلة ، يستنجد به أن يأتي لياخذه من القرية . ربما حملت سيارة العمدة هذا الرسول الى البيت في المدينة ، الليلة . ربما ذهب هو بنفسه اليه . فكر ان أباه فيما مضى كان ثائرا ، وكان أعزب ، الآن هو على علاقة طيبة بهم ، وسوف يأتي لياخذه بنفسه . فكر ان وجود الخال بين رجال الادارة ، ومراعاة خاطر أبيه ، لن يدفعهم الى التصرف معه عن طريق النقطة ، كما تصرفوا مع البنداري . لكنهم سيفعلون شيئا اكبر . ربما تصرف العمدة وحده ، بمعزل عن الخال وبغير علم منه . مصلحته الآن ، ومصلحة عائلته الراكبة ، فوق الخال ، وفوق أبيه ، وفوق البلدة بأسرها ، اذا لزم الامر . فكر انه لم يقل لابيه شيئا ، كلمة واحدة عن النادي ، ولا عن البيت للنادي ، ولا عن هذه الضجة التي سيحدثها . فكر انه الآن وحده في مواجهة رؤوس القرية : العمدة ، والاعيان ، ومشايخ البلد ، ومدرسي المدرسة . زملاؤه الطلاب هربوا الآن الى الشقوق ، ينتظرون ما سوف تسفر عنه المعركة . ان صابت جنوا الثمار ، وان خابت آبوا بالسلامة ، ونجوا من العاقبة .

تأمل فيما يحيط به من جدران ، وسقف ، ونوافذ أربع . بدت له الغرفة ضيقة واطئة ، كانت من قبل رحبة في عينيه . وكان الضوء باهرا وسط كتلة ضخمة من ظلام الليل . فرك عينيه علّه يرى ضوءا أفضل . فكر ان العتمة تغطي داخله ، تصيبه بالغشاوة والعشى . انتبه على زوجة خاله تجلس بجواره ، تهمس في أذنه :

ـ توكل على الله . وكل شيء سيكون كما نحب . البركة في خالك . أنت من دمه ، والظفر لا يخلع من اللحم . دع لي هذه الحكاية ، وأنا سأنهيها لك .

حدث نفسه : البلهاء . المسألة الآن أكبر منك ، وأكبر من خالي لو أحب . قالت له هامسة في أذنه :

ـ حل عروسك عليه ، وهي تحل لك كل العقد .

نهض ، ود لو يسبها ، لو .. قال لها :

ـ متشكر .

وتركها ، وخرج ، دون تحية ، دون وعد بالعودة .

*

لم يرجع حسن في الطريق الذي جاء منه الى بيته . أخذ طريقا معاكسا ، يعلم انه سيمر على دوار العمدة ، حيث يجلس الآن على المصطبة في ساحته ، من كانوا معه . أسرع الخطى مارقا من حدود الدوار ، ومستطيل الضوء المطروح منه في ظلام الطريق ، ومن حدود مسجد عائلة العمدة . زمان كان يلاحظ كثرة ما به من دورات مياه قذرة ، عطنة ، تقف على بعد أمتار قليلة من الدوار . كان يلاحظ ان اكثر من يدخلونه ، لم يكونوا يصلون ، وانما كانوا يذهبون ليتركوا بقاياهم ، ويغسلوا أيديهم وأذرعهم من آثار العمل . ظلت المنطقة التي يمر بها في الطريق ، حتى الصاري ، ومسجد أبي عنان ، أكثر عمارا ومحلات ، من النصف الآخر للقرية . أضواء الكلوبات في المحال ، تحيلها الى جزء من مدينة صغيرة . هذا هو نصف عائلة العمدة وعائلات حواشية من المأذون ، وصابر أفندي ، والتجار . النصف الغني الميسور . وهذا هو النصف الذي يقف ضده . النصف الذي ينتصر دائما ، ويكسب من كل العهود . يكسب من الثورة كما كسب من الملكية ، أمس ، والآن ، وبعد الآن . فكر ان ثمة شيئا ما ، شيئا خاطئا يحدث ، هو لا يعلمه ، والثورة لا تعلمه ، والثوار لا يعلمونه . فكر انه يتحرك وحده . البنداري أيضا تحرك وحده ، ولن يكون حظه مهما كانت الظروف أفضل من حظ البنداري . فكر ان كل شيء يحدث دائما في القمة ، ومن القمة ، وعلى القمة . من يمارسون الظلم ، ومن يطلبون العدل ، ومن يجرفهم تيار القمة ، وتشد أنظارهم فوقها طرق السلامة . لو ألح ، وقدم تنازلات ، تبدو للوهلة الاولى شكلية ، فسوف يقام النادي ، ويصبح منشأة أخرى للعمدة تخدمه ، وتحميه ، وتكرس وجوده بوجود المتعلمين ، وتدعم وجوده عند من فوقه . المهم أن يكون منشأه في يده هو والمستفيدون من حوله . واو فشل النادي لانصراف الناس عنه ، وابتعاد الطلاب عن جدرانه وساحته ، فسوف تقول أبواقه : ألم نقل لكم ؟ الناس لا يريدونه . بلدنا متخلف ، ولا مكان له لمثل هذا الترف . تذكر : الدوامة التي كانت تدور بالماء أمام بربخ الساقية ، مبتلعة ما يسقط فيها من قش ، ريح العفريت التي تهب دائرة حول نفسها بالتراب والحطب والحصى . تذكر انه مر دون أن يعي ، بل وعى ذلك في باطنه ، بمناطق مظلمة ، وأخرى مضيئة ، بكلاب تنبح ، وقطط تبحث عن طعام ، بأطفال يلعبون ، وشباب يلعبون السيجة ، وراديوهات تزعق بالغناء والحكايات في واجهات المحال التجارية ، ومر بدكانة متري ، والصاري ، وأشجار الذبائح الثلاث ، ومسجد أبي عنان . وها هو الطريق ينحدر به نحو البركة ، وأكواخ عمال التراحيل ، وبيت عم صابر . فكر أن يذهب اليه الآن ، ويمنحه ريالا ، ويطلقه في طريق القرية الدائري ، ينادي ، معلما الناس ان النادي سيفتح غدا في الصباح ، في بيت حسن . وان النادي مفتوح لجميع الاهالي ، وجميع الطلاب . توجه الى عم صابر . يستأجر من زمن قديم ، دكانا مشؤوما ، مهجورا لانه منحوس العتبة ، ويقيم فيه هو وزوجته وأولاده . يعمل مناديا ، ومسحراتي ، ورسولا لمن يبعث به الى أي مكان ، وسامرا وشاعرا يرسل المواويل ، حتى ولو لم يسمعه أحد .

وجده جالسا في مدخل بيته المفتوح الباب على جدرانه الثلاث ، مفضوحا للغادي والرائح . جلس اليه ، وحيا وسلم . وراح عم صابر يحاول أن يتذكره . ذكر له اسمه ، فلم يعرفه ، حتى انتسب الى أبيه وعائلته ، فنهض محييا ، متأكدا ان باب رزق قد فتح له الليلة :

ـ شاي يا بنت .

ومد له يده مقسما بحبة طماطم . ثم توقف مفكرا ، وهمد فجأة ، وجلس بجواره صامتا . قال بعد أن يئس من أن يتكلم حسن :

ـ خير .

ـ خير يا عم صابر .

صمت لحظة ، ثم قال :

ـ المسألة وما فيها يا عم صابر ، انني أريدك أن تنادي على شيء الليلة .

بدا له في الظلمة ، وفي الضوء الضائع المتراقص ، للمبة أم شعلة ، في فراغ الدكانة والشارع ، انه قد أدرك ما يريده . فتوقف . قال عم صابر :

ـ على النادي .

ـ نعم . من أين عرفت ؟

ـ من أين عرفت ؟ لا شيء في البلد يخفى على عم صابر . سلني من طبخت اليوم ملوخيه ومن طبخت بامية ، ومن ذبحت فرخة ، ومن باتت من غير عشاء ، أقل لك . البلدة كلها تتحدث عن النادي ، والبلد بوشك أن ...

ـ هيه .. قل .

ـ يا حسن افندي . بلدنا رابطة على بطنها وساكتة ، وحكاية النادي ستقيم الناس على بعضها .

ـ كيف ؟

ـ فيه دمل ، عليه قشرة ، ومكنم . اخلع القشرة ، ماذا يحدث ؟ دم وصديد ما يعلم به الا ربنا .

ـ لكن الدمل سيشفى .

ـ مثل يعني يا حسن أفندي .

ـ يعني ..

ـ العمدة وافق ؟

ـ **بصراحة : لا .**

ـ تحب لي الاذية ؟

ـ أنا ؟ لا . أنت خيرنا وبركتنا . وأنا صغير كنت أدور معك لتسحير الناس ، انت رجل على باب الله .

ـ الله يعمر بيتك يا ابني . اسمع يا حسن افندي . مر وانا أنفذ . على رقبتي وحياتك . أنا أنادي على ولد تائه ، على بهيمة ستذبح ، على انتخابات . لكن حكاية النادي ، وغيرها ، هذه لا بد أن يأتيني بها أمر من العمدة ، أو من شيخ بلد على الاقل . أقول لك . مر وانا أنفذ . ما هي النتيجة ؟ علفة في الدوار ، وطردي انا وعيالي من البلد . بسيطة . مر وأنا أنفذ . انا ومن هم مثلي ، في هذه الناحية ، من انفار التراحيل ملطمة . من باطنا الى السماء . ولا حساب لاحدنا ، ولا عقاب من احد . انا مثل ، ولا مؤاخذة ، اسم الله على مقدارك ، مثل الملح في البركة ، عندما ينشف ماؤها .

ـ عم صابر . لا تؤاخذني . أنا فهمت . ولا أحب لك الاذى . أشوفك بخير .

ـ لا والله . اشرب الشاي أولا .

ـ في مرة ثانية يا عم صابر .

ومد يده في جيب صداره ، واستل ورقة بعشرة قروش ،وناولها له ، وذهب مبتعدا عائدا الى البيت . وهتف في أعماقه :

ـ يا أولاد الايه .

ـ ٦ ـ

تلك الليلة ، والى ما بعد عشاءين ، لم يأت أحد الى حسن . جلس في المضافة وحيدا . المصباح مضاء بين شققها وأرضها ، والناموس يحوم حول الضوء ، ويطن عند آذنيه ، ولا شيء سوى الصمت، ولا أحد يأتي ، يعبر امام الباب المفتوح عابرو الطريق يمنة ويسرة ، وندر من يلقي منهم بالسلام ، ولم يتفضل أحدهم بقبول دعوته فكف عن قولها لاحد . بدا له ان هناك مؤامرة ، يحمل الهواء أنفاسها اليه . تمنع الناس من المجيء اليه ، طلابا وأهالي . فكر ان القرية صغيرة صغيرة حتى بآلافها العشرة ، وان شيئا لا يبقى فيها سرا ، لذلك يتجنبه الناس الآن . بدا له الصمت مشحونا ، عامرا بضجة الليل الساكن ، وأصواته المزعجة . كانت هذه الاصوات جوقة من النغم في الليالي الماضية . الآن صارت عذابا لا يحتمل . فكر أن ينهض ، ويغلق الباب ، ويمسي المصباح ، وينام الى الصباح ، لكن الليل طويل وصدره مشحون بالهواجس ، وبدقات قلبه العالية .

أحس انه خائف حقا ولن يعرف النوم في ليلته . ود لو يأتيه أحد ، من طلاب البلد ، أو حتى من زعرانها . فكر ان يذهب اليهم في مجلسهم السامر ، على مشارف الارض المليئة بالموالح والنخيل ، لكن أوانه لم يحن بعد ، وليس مثلهم خالي القلب يأنس الى الليل ، ويغامر بالتعرض للخطر . نهض ليغلق باب المضافة ، ويطفيء المصباح ، وينام الى الصباح ، مع زوجة جده ، مفتاح الباب الآخر ، المؤدي الى فسحة البيت ، سنعود في أي وقت من عند الجيران ، وليس عليه سوى أن يغلق الباب ، ويطفيء المصباح ، وينام الى الصباح . أحس ببرودة مرعشة ، فكر انه خائف ، لانه وحيد . فكر انه قال اليوم كلاما ما كان ينبغي له أن يقوله . شحن الكل ضده ، وهو واقف وحده . أسلمهم السيف ليقتلوه به . فكر ان النادي اذا كان المطلبة قضية ، فهو لا يعني الآن شيئا لمن يفلحون الارض ، ويروونها بالعرق والتعب ، والصحة والمرض . لو حمل فكره هذه ، وذهب الى عمال التراحيل ، لنظروا اليه كأبله ، وظلوا يضحكون على سذاجته حتى الصباح . ضاق بنفسه ، وبالليل ، وبالناس . تمنى أن يختبيء الآن ، في المندرة ، على الاريكة ، تحت لحاف . يتكور على نفسه هاربا من كل شيء . سيطرت عليه الرغبة جارفة عارمة ، فنهض ، وأغلق الباب ، وخاف من ضوء المصباح ، الى أن تأتي زوجة جده فتطفئه . وهم بدخول المندرة ، وسمع طرقا شديدا ، ملهوفا ، على الباب . أسرع ليفتحه . تردد لحظة. تذكر في ومضته ما حدث لقتيلي عائلة كاءوه ، حين جاءوا بهما من حيث كانوا يعملون في أرض معوض ، قتيلين محمولين في نعشين ، بعد أن دعيا على عشاء فاخر ، قتلا بعده في نفس المكان الذي كانا فيه يأكلان رميا بالرصاص . سقط في رأسه مشهد لا ينسى ، لنسوة يتحلقن ، يدرن نصف دورة في حلقة النواح واللطم والشنشنة بالشيلان ، ثم يرجعنها من جديد ، ضاربات الارض بأقدام اللوعة . زاد من ضوء المصباح . وفتح الباب دفعة واحدة . رأى أمامه عطية :

ـ أنت هنا ، والدنيا مقلوبة .

قال على فزعة المفاجيء ، بحكم العادة :

ـ طيب . أدخل .

ـ أدخل ؟ قلت لك : الدنيا مقلوبة . أسرع .

ـ ماذا حدث ؟

ـ طلبة عائلة العمدة ، تجمعوا ، وطلبتنا يقفون الآن بمقابلهم . الكل يحملون النبابيت . سنكون مذبحة . أسرع . ابن عمك رشاد يحمل بندقية محشوة بالرصاص .

كان حسن قد لبس الثوب الذي نزعه ، ودس قدميه في البلغة ، وبحث عن طاقيته عبثا . فتركها ، وخرج مسرعا مع عطية ، وأغلق الباب بالمفتاح ووضعه في جيبه .

*

عند الحد الوهمي ، الفاصل بين الفقر والغنى ، بين عائلات الاهالي وعائلات الادارة ، قريبا من بيت الخال ، كان الظلام دامسا ، لا تضيئه جذوة نار ، او ومضة ضوء . وراح يتحسس طريقه بين أجساد لا يرى لها وجوها ، وكأنما قد عميت عيناه ، وراح عطية يقوده من يده بين الناس ، والمطبات ، الى مقدمة الجمع المحتشد بغير نظام. سمع صوت رشاد بجواره يهدد في الظلام ، أناسا لا يراهم حسن وسط العتمة :

ـ من يتقدم سأضربه بالنار .

أمسك بيده ، قائلا :

ـ رشاد .

أحس مع صوته ، ان ماردا جبانا ، هائلا ، يركبه ، ان شعر رأسه قد قف ، وقشعريرة باردة ساخنة تجتاح جلده ، تنفذ في أعصابه حتى العظام . قال له رشاد :

ـ ولا يهمك . أنا معك حتى النهاية . نحن أو هم .

صاح به حسن :

ـ لا ليس بالدم . ستكون مذبحة .

سمع صوتا من بيت مجاور ، يأبى عبر باب او نافذة :

ـ الله يخرب النادي ، ومن يريدون النادي .

فكر حسن انهم يتصرفون الآن . يحيلون الموقف كله الى فتنة ، مهما كانت نتائجها . فكر ان خاله آخر من يعلم الآن . لعلهم يشغلونه بسهرة عامرة بالطعام والشراب ، مدعين انهم لا يعلمون شيئا ، ولا يد لهم في شيء . عاد حسن يقول :

ـ ارجع يا رشاد . كلنا نرجع . هم يريدون ذلك . لا بد ان نفوت عليهم الفرصة . كل واحد يرجع الى بيته .

سادت لحظة صمت ، أحس بعدها ان الكل قد أخذ فعلا في الانصراف ، ووجد نفسه وحيدا مع رشاد . انسحب صحبه من الساحة عائدين الى بيوتهم . سأله عطية :

ـ والعمل ؟

قال حسن :

ـ الصباح رباح . الآن ، الدنيا ظلام .

ـ أجيء معك .

ـ لا . اذهب انت الى بيتك .

ـ أطمئن عليك .

ـ لا . معي رشاد .

ووضع رشاد يده في يده . أمسك بها ليشد من أزره . قال له :

ـ رباه . يدك باردة !

قال معتذرا عن برودة يده :

ـ كنت نائما .

خيل اليه ان رشاد قد ابتسم . قد انفصل عنه للحظة فقط . وسارا معا صامتين . وعند باب بيته قال لرشاد :

ـ تعال معي .

ود أن يقول له رشاد ، أن يأتي هو معه الى جلسة الليل ، ورفاق الليل . قال له رشاد :

ـ لا . اذهب أنت . ونم الليلة . استرح . وتغطّ جيدا لتدفيء نفسك .

أدرك حسن انه يسخر منه الآن . يعامله كطفل ، كابن مدينة رخو العود ، يبرد يده في لحظة الخطر ، لم يجد سوى ان يقول له :

ـ نصبح على خير .

أجابه رشاد وهو يمضي مبتعدا ، الى الحارة ، فالمزارع :

ـ وانت من أهله .

وتركه وحيدا أمام الباب ، أعزل حتى من كرامته ، بين أصوات الليل الرهيبة التي لا تبقي على سر لاحد .

ـ ٧ ـ

قالت له زوجة جده عبر النافذة التي في الجدار :

ـ مالك ؟ نم .

ـ لا أستطيع .

ـ انس حكاية النادي ، ونم .

ـ نسيتها . لكنني لا أستطيع أن أنام .

ـ لم ؟

أجابها حسن في سره : لانني خجل من نفسي . قال :

ـ لا أستطيع .

راح يتقلب ظهرا لبطن ، ومن جنب الى جنب ، يغير موضع رأسه وقدميه ، يدير رأسه مكان رجليه ، ورجليه مكان رأسه . هتفت زوجة جده :

ـ ربنا يربحك يا ابني .

فكر انها تلومه لحكاية النادي . فكر ان يأتي بلافتة في الصباح ، ويكتب عليها : « نادي الشباب » ويعلقها فوق باب المضافه على الشارع . أحس بلدغة في عنقه . دلك مكانها ، ففقأ شيئا وفاحت الرائحة ثقيلة كالزهق والفشل . نهض مفزعا . رفع من ضوء المصباح المعلق على السجاف . شاهد بعينيه عشرات منها ، تروح وتغدو على فراشه ، على الجدار ، على السجاف ، على ملابسه ، نزعها جميعا وراح ينفضها . فكر انه لم يعد يحتمل هذا البق ، وهذه الحياة . عليه أن يرحل . لا جدوى ولا فائدة من الاحتمال . أوصل مبكرا بيديه في مجلس المشايخ ، كل شيء الى نقطة اللاعودة ، الى درجة الخطر ، عند نقطة الصفر . فكر انه لا بد أن يتوقف الآن . لقد فجر المسيرة ، وعلى الكل أن يحمل فيها عبئه . عليه أن يرحل في الصباح ، على أول قطار ، قبل أن يراه أحد ، وقبل أن تشرق عليه الشمس .

قال لزوجة جده ، وهو يطارد الحشرات الداكنة الحمرة :

ـ سأسافر في الصباح ، على أول قطار .

قالت زوجة جده :

ـ أحسن لك يا حسن . تريح نفسك من هم البلد . الحمد لله يا ابني . ربنا سلم .

قال حسن :

الدنيا تتغير . لا بد أن يفهم العمدة ذلك . لماذا لا يبحث له عن بلد آخر ؟

لم تجبه . لم تقل شيئا . كانت قد أمنت عليه ، ونامت . فكر : هذه هي غزونه الاولى ، غزوة الشاطر حسن المظفرة ، الاسكندر الاكبر لمصر ، للقرن العشرين ، لمنتصف القرن العشرين . فكر : على المحطة سيجد عم عزيز . بينهما سيدور حوار قصير . وربما وجد أباه قادما اليه في أول قطار . ولسوف يكون غاضبا أشد الغضب . وتخايلت له عيون مفجوعة ، ارشاد ، وعطية ، وحافظ ، فانهال قتلا للحشرات التي تدب ، هاربة من الضوء .

(القاهرة) سليمان فياض

المنار

قاموس انكليزي عربي
تأليف حسن الكرمي

يضم هذا القاموس الجديد بين صفحاته البالغة ٩١٢ صفحة، قرابة ٤٠,٠٠٠ كلمة رئيسية، تشتمل على مفردات ومصطلحات حديثة الصوغ في السياسة، والتكنولوجيا، والاستعمالات العامة.
ولا يوجد قاموس آخر يماثله نهجا وفحوى، اذ ان المؤلف ضمّنه مصطلحات أمريكية وبريطانية عصرية الاستعمال، وحيثما وجد كلمة باللغة العربية الفصحى قريبة الشبه من الكلمة الانكليزية، ولكنها غامضة وغير مفهومة تماما، فسّرها بالعربية المعاصرة.
أما اللفظ فقد وضع له أسلوبا جديدًا مستحدثا باستعمال علامات فارقة مميزة قوامها الأبجدية العادية، الأمر الذي من شأنه دون ريب أن يساعد الشخص المنتفع بهذا القاموس على أن يلمح التهجئة واللفظ الصحيحين للكلمات في آن واحد، بدون أن يحتاج الى معرفة مصطلحات التلفظ المتعارف عليها عامة.
وعلاوة على ذلك يشتمل القاموس على أسماء للاعلام وأسماء جغرافية وتاريخية قد لا تخطر أمثالها وأندادها بالعربية في الذهن فورا. كما أنه يشتمل في معالجته الأسماء والصفات والأفعال على صيغ الجموع، وصيغ التفضيل، وأسماء الفاعل والمفعول في الحالات التي تشذ عن القاعدة، أو التي قد يجد الباحث صعوبة في معرفتها.

الناشران :
Longman
و مكتبة لبنان
ص . ب : ٩٤٥ - بيروت - لبنان

يطلب القاموس
من سائر المكتبات في العالم العربي
السعر: ١٦ ليرة لبنانية او ما يعادلها